زهرة البنفسج

(يارا)

اسم الرواية: **زهرة البنفسج (يارا)**

اسم المؤلف: **دعاء نوفل**

تدقيق لغوي: **هاجر جابر**

تصميم الغلاف: **علي عطية**

تنسيق داخلي: **أسماء عطا**

رقم الإيداع: **٢٠٢١/٢٣٢٧**

الترقيم الدولي : **٩٧٨٩٧٧٨٤٤١١٠٧**

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

إبهار
للنشر و التوزيع

E-mail: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

دعاء نوفل

زهرة البنفسج

(يارا)

روايةَ

نحن الآن متجهان أخيرًا إلى السفارة الكندية تختلط المشاعر داخلنا بين حبٍ وفرحٍ كبيرين وبين حزنٍ وخوفٍ أكبر، نذهب لتقديم طلب هجرة وربما لجوء إذا كانت السفارة تعتبر حالتنا من الحالات التي ينطبق عليها اللجوء الإنساني، فنحن بزواجنا ستتعرض حياتنا للخطر والتهديد بالقتل الفعلي، إضافة إلى أنه أمر مخالف للعادات والأعراف مما يجعلنا مُعرضين للتنمر والاضطهاد ربما.

قائمة طويلة من الشروط الواجب توافرها لتقديم طلب الهجرة، ذلك لأن طلب اللجوء لا يقدم إلا في كندا أو عند الوصول للمطار، لكن المطلوب الآن فحص طبي، ورصيد في البنك، وشهادات جامعية، وشهادة لغة، حيث أن كل هذه الأمور تندرج كنقاط في النظام التأهيلي للهجرة ويجب ألا يقل عن سبع وستين نقطة، ليتم دراسة طلب الهجرة.

استغرق منَّا التحضير لهذا اللقاء ما يقارب الشهرين، منها إصدار تصريح لدخول الأراضي المحتلة عام (١٩٤٨م)، فالسفارة الكندية موجودة هناك في مدينة تل أبيب تحديدًا.

التصريح ساري ليوم واحد من الساعة الثامنة صباحًا حتى العاشرة مساءً، ومكتب السفارة يعمل حتى الساعة الرابعة والنصف، هذا يعني أنه يجب علينا الوصول إلى السفارة قبل الساعة الرابعة.

استيقظنا منذ الصباح، والتقينا في تمام الساعة السابعة والنصف في موعد ذهابنا للعمل، التقينا بالقرب من سيارات المؤدية إلى الحاجز العسكري الذي من خلاله نمر للجانب المسلوب من بلادنا، استغرق الطريق ما يزيد عن الساعة، طرق طويلة والتفافية، كان سيكون المشوار أقصر جدًا لولا هذه الطرق البعيدة التي يفرضها علينا الاحتلال، فالمستوطنات الإسرائيلية

والطرق الإسرائيلية تحتل الكثير من مساحات أراضينا والتي يصادرها الاحتلال متى شاء، لذا نضطر لإنشاء طرق طويلة في الأماكن المسموح لنا بها.

وصلنا الحاجز في تمام الساعة التاسعة، يتكون الحاجز من بوابتين، يقف الناس داخل البوابات الحديدية، بطابور يطول و يطول، تدافع كبير و حالات اختناق أحيانًا، أطفالُ صغار و شيوخ ونساء و رجال كلهم في طابورٍ واحد، ننتظر جميعًا أن يُقرر أحد العاملين هناك ضغط الزر ليفتح البوابة ويدخل ما يقارب العشرة، ليجدوا أمامهم طابور آخر في انتظارهم، تقف تنتظر مجددًا حتى تجد نفسك أخيرًا أمام البوابة تُفتح بكبسة زر، انظر لسهولة الأمر، ساعات طويلة من الانتظار لأجل كبسة زر فُتحت البوابة، أظهرت تصريح دخولي وهويتي، ثم مررت من جهاز الكشف، الأمر لا يتعدى لحظات، لكنه قد يستغرق نصف يومك، وربما يومك كاملًا، فهذا يعتمد على مزاج الموظفين، وقد تنتظر طويلًا جدًا أن كان لديك ما يثير الشك، كحبة تمر مثلًا.

نحن الآن في الجانب الآخر من الحاجز، الساعة الآن الثانية عشرة ظهرًا، سنستقل حافلة تقلنا إلى تل ابيب، قد يحتاج الطريق ساعة ونصف حتى نصل، لكنك لن تشعر بالوقت طوال الطريق، كم تشعر بالحنين والفرح الممزوج بالغضب والألم حين ترى بلادك المسلوبة، جميعها مدنٌ ساحلية تطل على البحر الأبيض المتوسط، موانئ و شواطئ وصيد سمك، رائحة البحر وجمال الطبيعة الخضراء المنتشرة على طول الطريق، نحن نحلم دومًا ببلادٍ كالبلاد، نحلم في بلادٍ تشبه بلادنا، بل نحن دون أن ندرك نحلم في

بلادنا ونبحث عنها في البلاد الأخرى، آملين أن نجد فيها ما فقدناه في بلادنا، لكن لا مكان في الدنيا يعوض الوطن.

وصلنا أخيرًا، وعلينا أن نأخذ سيارة أجرة تنزلنا أمام السفارة، أعتقد اننا سنصل في حوالي الساعة الثانية إلا ربع، لكن لا بأس ما دمنًا في بلادنا لا ضير في ذلك، ليتني أستطيع إخبار عائلتي بزيارتي هذه ليتهم يشاركونني هذا الفرح.

وصلنا أخيرًا، طابورٌ جديد في انتظارنا، لكن مع الاختلاف الكبير في التعامل، فهنا يوجد الكثير من المقاعد، والتكييف والهدوء والانتظام، وربما كان الجميع هنا يبحث عن هجرة مثلنا، هل يهاجر الإسرائيليون؟ ولماذا يهاجرون؟!

جاء دورنا تقدمنَّا بهدوء و ثبات، قدمنَّا الأوراق المطلوبة كاملة، وقاموا بتحديد موعد للمقابلة بعد شهر من الآن، خرجنا وكل آمال العالم بداخلنا، بدأنا نرى الطريق ينير أمامنَّا، صرنا نتخيل حياتنا أجمل، بات لنا أمل كبير جدًا في الحياة السعيدة، سرنا فرحين متوجهين إلى بيوتنا، الساعة تقريبًا الخامسة والنصف، كانت عائلتي تجلس بالقرب من المدفأة، دخلت وأنا أحأول أن أخفي الفرح عن ملامح وجهي، ثم قلت بجدية:

– مرحبًا أنا متعبة جدًا هذا اليوم سأخذ قسطًا من النوم سنتحدث غدًا عند عودتي من العمل، لا ترتيبات حتى ذلك الوقت.

أغلقت غرفتي وبدلت ملابسي، واتصلت بهادي تحدثنا طويلًا حتى منتصف الليل، بدأنا نتخيل حياتنا في كندا رأينا مستقبلنا وحفل زفافنا الضخم، رغم أننا لا نعرف أحدًا هناك سوى رفيق كميل، لكنه حتمًا سيحضر رفاقه ويحتفل بنا احتفالًا كبيرًا.

بدء هادي في هذه الأثناء يتحدث مع كميل الذي وعده بأن يضمن طلبنا في السفارة إذا احتاج الأمر ذلك، رغم قوله بأنه لن يحتاج ذلك فقضيتنا ستصبح قضية رأي عام، شابان يحبان بعضهما ويريدان الزواج لكن اختلاف الدين هو العائق الوحيد بينهما، ربما لو كان الشاب مسلمًا والفتاة مسيحية لكن الأمر أقل صعوبة، فهو في النهاية زواج شرعي رغم بعض المعارضات، لكن الفتاة المسلمة لا يحق لها الزواج إلا بمسلم، ولا يقبل الشرع بذلك أبدًا، لذا لن نستطيع الزواج بالطريقة الشرعية، وأن تزوجنا بالكنيسة سأصبح مسيحية على الأقل من وجهة نظر عائلتي، فلا حل إذن سوى الزواج المدني.

.***

كانت فكرة الهجرة لكندا منذ البداية فكرة كميل، فعندما رفض والديَّ زواجي من هادي، عاد للبيت وكأنه متفاجئ جدًا من ذلك، وقد اسودَّت الدنيا في عينيه، في ذلك الوقت كان كميل قد أرسل له يسأله عما حدث مع والدي، وعندما أخبره برفضهما الشديد، طلب منه أن يحدد موعدًا معي ونحادثه مكالمة فيديو، وهذا ما حدث بالفعل، التقينا بعد يومين واتصلنا به، كنا منكسرين يعلو الشحوب وجوهنا، وكان هو في الطرف الآخر يتحدث مبتسمًا يملؤه الحماس، بعد ان ألقى التحية، قال ضاحكًا: تبدوان كطفلين صغيرين مُعاقبين لسوء تصرفاتكما، قلت له: هل تمزح، نحن فعلًا كذلك، أنا تحديدًا منذ يومين وأنا أرجو والديَّ حتى أفرجا عني واستطعت القدوم، حتى أنني غيرت سيارة الأجرة مرتين و دخلت في متجرين قبل الوصول هنا، كي لا يتبعني أحد.

قال:

-حقًا أنكِ مسكينة، وحياتك هذه متعبة، لكن أعتقد أن حل مشكلتكما هذه عندي، والخيار لكما، لذا لا تقاطعا حديثي وانتظراني للنهاية.

قلنا معًا:

-حسنًا، والترقب في نظراتنا.

قال بفرح:

- ستذهبان من الغد للسفارة الكندية وتقدما طلبًا للهجرة، ولا تقلقا، فإن قضيتكما قضية تهم الرأي العام وسيتم قبولها حتمًا، وأن لم تقبلا سأقدم الضمانات الكافية لتستطيعا الوصول هنا، وعندها سأزوجكما فورًا، سيكون أجمل حفل زفاف على الإطلاق، لكن عليكما المعرفة أنها هجرة، رحلة ذهاب فقط لا عودة فيها، ستتركان خلفيكما كل شيء وتبدآن حياة جديدة، لا أريد إجابة الآن، فكرا بالموضوع فقط.

لم يجب هادي، أنهي المحادثة مع كميل بكل هدوء، ونظر إليَّ ونظرات الحيرة في عيونه وقال:

-يارا حبيبتي، ما رأيك بهذا الكلام؟

أجبت:

-لا أعرف يا هادي، لا أعتقد أن ذلك ممكن، هل تستطيع أن تترك عائلتك وأصدقائك ووطنك وترحل!

قال:

- لأجلك فقط، أفعل ذلك.

قلت:

-أنت تفكر بعواطفك ستمر الأيام وتندم.

قال:

-لا لن أندم، بإمكاني إحضار والديّ أو أي أحد من أفراد عائلتي لزيارتي "بدأ التوتر عليه في نهاية حديثه واحمرَّ وجهه" وهو يقول لو شئت ذلك!

قلت: وأنا هل بإمكاني ذلك؟

قال:

-أنت تعلمين كم أتمنى هذا، لكنه سيكون خطرًا على حياتك و حياتي أيضًا، وعلى حياة أطفالنا.

-أطفالنا؟ نعم، ألا تودين ذلك

- بلى، بالطبع أود، لكني لن أفعل ذلك بعائلتي، ألا يكفيهم أني أحب مسيحيًا، وأريد الزواج به؟ بل تريد مني الهرب معك إلى بلادٍ بعيدة باردة لا نعرف فيها أحدٍ.

- بل نعرف، كميل.

- و هل كميل الدنيا؟ أهو والديك؟ أم والدي؟ هل سيعوضني عن حنان أختي أم سيعوضك عن سند أخيك؟ مهما كان قريبًا منَّا، لن يكون عائلتنا يومًا، سيكون محور حياتنا ونكون طرف صغير من معارفه.

- هل تقصدين أنكِ لن تقبلي؟

- لا يا هادي، جد لنفسك حلًا أخر، يكفي ما حل بنا إلى الآن، سأذهب قبل أن أتأخر، عليَّ أن أشتري أي شيء، حتى أبرر غيابي ساعة كاملة عن البيت.

عدت يومها للبيت بعد أن اشتريت قميصًا جديدًا لم يعجبني كثيرًا لكنه أفضل من العودة خاوية اليدين بمجرد أن دخلت البيت بدأت أمي تنادي فورًا:

-يارا يارا، هل هذه أنتِ؟

- نعم يا أمي، إنها أنا.

-تعالي يا بنتي، أريدك في أمر.

. -حسنًا، أنا قادمة

سرت قليلًا حتى وصلت غرفة الضيوف، كانت أمي جالسة وبجوارها جارتنا أم دنيا التي تجمعني بها صداقة قوية، وتعرف بكل تفاصيل علاقتي بهادي، لكن وجود أمها وطلبها الحديث معي يثير حيرتي.

بمجرد دخولي للغرفة، نظرت المرأتان ببعضهما وابتسمتا، قلت والفضول يملأني

-مرحبًا، خالتي أم دنيا كيف حالك؟

-بخير، اجلسي نريد الحديث معك؟

-أنتما تتحدثان معي؟

-نعم، في الحقيقة أن ابن أختي

قاطعتها أمي فورًا وقالت وهي تنظر إليّ:

-سعيد تعرفينه لطالما لعبتم سويًا وأنتم صغار!

-نعم، عرفته يعمل الآن محاسبًا في أحد البنوك، أليس كذلك؟

ردت أمي بحماس كبير:

-أجل، ها أنت تعرفين.

-ولم لا أعرف، هو صديقنا ونلتقي كثيرًا في منزل دنيا.

. -صحيح، وهو الآن يبحث عن عروس

-هذا جيد، ما المطلوب مني؟

-يريد خطبتك أنتِ.

... -أنا، ولكن يا أمي، أنا أح

-ماذا؟

-أقصد أني لا أحبه، أشعر به صديق أو أخ..

-حسنًا يا جارتنا لا تقلقي، سأتحدث معها في وقت لاحق، اذهبي يا بنتيوارتاحي.

ااااه من الأهل، ماذا يريدون منَّا؟ لماذا لا يفهم الأهل أن لنا حياتنا الخاصة وأحلامنَّا وآمالنا، لماذا لا يفقهون كلام جبران خليل جبران، حين قال" أولادكم ليسوا لكم، بل هم أولاد الحياة المشتاقة لنفسها"، متى سنتحرر من كوننا أملاكًا لعائلتنا بل أشخاصًا بمشاعر وأحلام؟

هل يجب أن نحيا الحياة التي يخططونها لنا وأن اعترضنا وأبدينا رغبة مخالفة لأمنياتهم أصبحنا أولادًا لا مبالين!

***

اتصلت بي يارا وكانت تتحدث بسرعة وهي غاضبة لم أفهم منها شيء، قلت لها: اهدئي يا مجنونة، فأنا لا أفهم ما تقولين ابدًا، لكنها أجابت بكل عصبية:

-لماذا لا تفهم، هل أخاطبك بالسنسكريتي مثلًا؟

-لا، لكن تحدثي بهدوء ما الأمر؟

-لا شيء، جارتنا والدة دنيا تريد خطبتي لابن أختها سعيد.

-سعيد، ابن خالة دنيا

-هو بعينه

-غريب

-ما الغريب بالأمر، ألا تراني أستحق أن يعجب بي أحد ويتزوجني؟

-الغريب أنه يعرف بحبنا، هل نسيتِ؟

-وكيف أنسى؟

-كان ذلك في حفلة عيد ميلادي، حينما قررتِ مفاجأتي ودعوة أصدقائي و أحضرتِ معك دنيا، ألا تذكرين؟

-أذكر لقد كانت حفلة رائعة جدًا، وأهديتك الكثير من الهدايا، كم أنا مسرفة.

-أنتِ تحبيني كثيرًا، هذا كل ما في الأمر، المهم يومها جاء سعيد مصادفة، لكنه كان وحيدًا، وأصرت دنيا أن تجلسه معنا، وعرفتني عليه، قائلة: سعيد ابن خالتي، وهذا هادي الشاب الذي تحبه يارا، حدثتك عنه كثيرًا.

-أجل، حينها قال لك: ألست الشاب المسيحي الذي يحاول خطف قلب جارتنا

قلت له:

- بل هي من خطفت قلبي منذ أول مرة رأيتها.

-فعلًا، هو يعرف هذا جيدًا فلماذا يخطبني؟

أيحسبنا تركنا بعضنا أم أنهيحاول أخذك مني بطريقة شرعية.

-لا أدري، على كل حال لن أوافق ابدًا.

-بالتأكيد لن توافقي، وستذهبين معي للسفارة الكندية

-بالطبع لن أذهب، أنت تحلم

-سأتحدث مع كميل ليساعدنا

- لا حاجة لذلك.

***

هادي الآن يحادث كميل، هل يصدق حقًا أني سأترك وطني وعائلتي وأهاجر، لماذا أفعل هذا في نفسي؟

أقسم أني لم أكن أعرف أنه مسيحي حينما تعرفت عليه، هادي ليس اسمًا مسيحيًا ابدًا، أقصد أنه لا يدل على ذلك ولا يدل على غيره أيضًا، ربما كان جهلًا مني ومنه وأيضًا اسم يارا ليس بالاسم الذي يدل على الإسلام بل هو أقرب للأسماء المسيحية، ثم أن المناسبة التي التقينا فيها أول مرة تعني للمسيحيين بقدر ما تعني لغيرهم، ليلة رأس السنة، ونحن سكان مدينة بيت لحم فينا من المسيحية بقدر ما فينا من المسلمين و ربما أكثر، كنت دومًا أشارك في حفلات رأس السنة في ساحة كنيسة المهد وسط المدينة، لكن هذه السنة وهي أول سنة لي في وزارة السياحة والآثار كمترجمة، قرر زملاء العمل الاحتفال سويًا في أحد المطاعم القريبة من وسط المدينة، وصلت الحفل في تمام الساعة العاشرة، ارتديت ملابس تناسب السهرة لكنها أقرب إلى الرسمية من كونها احتفالية، وتركت شعري مفرودًا على ظهري بطوله دون أي جهد مني، ولم أضع من المكياج سوى الكحلة والماسكارا ولون

وردي خفيف للشفاه، لا أحب البهرجة وكوني فتاة بيضاء فإن أي مكياج أضعه سيكون واضحًا جدًا، لذا أحب البساطة والنعومة في كل شيء.

قد كان مسموح لكل واحدٍ من الحضور أن يحضر معه مرافق واحد فقط، فالمتزوجون يحضرون أزواجهم والمحبين يحضرون أحباؤهم والوحيدون مثلي يحضرون أصدقائهم، وبما أن صديقتي وجارتي دنيا معجبة بزميلي جهاد فبالتأكيد لم يكن أمامي خيار سوى أخذها معي، فهي فرصتها المناسبة والتي قد لا تتكرر.

حينما دخلنا المطعم كان الجميع يجلس على طاولة في وسط المطعم، عرفتهم فورًا على دنيا و رحب الجميع بنا، كنت أريد الجلوس بالقرب من النافذة على طرف الطاولة، لكن دنيا أصرت أن نجلس مُقابل جهاد و صديقه؛ فجلست هي مقابل جهاد وكان مقابلي هادي!

***

كميل:- حقًا يا هادي أنت لم تخبرني كيف أحببت يارا، كل ما أعرفه أنكما التقيتما في حفلة رأس السنة قبل ما يقارب العامين.

-أخبرتك إنها زميلة جهاد في العمل، وقد حضرت الحفلة برفقة صديقتها المعجبة بجهاد، هذا ما جعلها متفرغة طوال الوقت، فصديقتها تحاول التقرب منه، وأنا حاولت التقرب منها

-هل أعجبتك منذ البداية، أم إنك كنت تريد قضاء سهرة جميلة فحسب؟

-بالطبع أعجبت بها جدًا، فقد كانت هي الوحيدة البسيطة الأنيقة في كل شيء، ناعمة بكل تفاصيلها، بريئة كالأطفال لا تبتذل ولا تحاول لفت الأنظار إليها، لها شعرٌ أشقر طويل، وجسم نحيف رقيق، وبشرتها صافية

كقطنة بيضاء، عيون خضراء فاتحة بلمعة تضيء عينيها حين تفرح أو تخجل أو تبكي حتى!

– يا لهذا الجمال، كم أنت بارع في الوصف؟ حسنًا وكيف تجرأت وتحدثت إليها.

–لست أنا من تحدث، إنها دنيا بعد نصف ساعة من الجلوس، أراد جهاد أن يرقص وطلب من يارا طبعًا فهي أولًا تجلس أمامه وثانيًا زميلته في العمل ويعرفها جيدًا وكانت بلا مرافق ثالثًا، ولم يكن سوانا على الطاولة، لكن دنيا تدخلت بسرعة، قائلة: إن يارا لا تفضل الرقص كثيرًا وأنها ستتولى هذه المهمة بدلًا عنها.

–وماذا حدث؟

رقصت دنيا مع جهاد بالطبع، ولم يبقى سوانا جالسين.

–فانتهزت الفرصة وطلبت منها الرقص بالطبع؟

–بالتأكيد لا، لست بهذه الوقاحة، عرفتها بنفسي قائلًا: أنا اسمي هادي أعمل في مكتب سياحة وسفر كموظف حجوزات، إن جميلة مثلك بالتأكيد تحب السفر، وجلست بجوارها.

***

منذ أن قال جملته الأولى، شعرت أنه يتودد لي، كان وسيمًا، يرتدي معطف أسود جلدي قصير، تحته قميص لا أذكر لونه، وسروال فاتح اللون وحزامًا وحذاء أسود اللون، اقترب مني مبتسمًا وقال: إن جميلة مثلك تحب السفر بالتأكيد، أنا أعمل في مكتب حجوزات واسمي هادي، فكرت حينها " كم فتاة قال لها هذه الجملة، هل يستخدمها دومًا لكن يبدو أنه قد فهم من

نظراتي ما أفكر به، فقال مكملًا جملته: بالتأكيد تظنين أنى أقولها دومًا للفتيات الجميلات، لكن صدقيني لست ممن يجيد المجاملات والغزل، إنما رقتك وهدوئك فعل بي ما فعلته.

ثم عادت دنيا وابتسامة النصر تعلو وجهها وهي تمسك في يد جهاد، ثم قالت حين وصلت بالقرب منَّا: أظن إنكِ وجدتِ رفيقًا لهذه السهرة، أبقي مكانكِ رجاءً، فأنا أريد الجلوس بالقرب من جهاد أن سمحت لي؟

قال هادي بكل أدب: بالتأكيد تفضلي، ثم نظر نحوي وقال لي: يبدو أنه عليَّ أن أكون رفيق سهرتك لهذه الليلة، إن لم يكن يزعجك هذا؟ رددت بهدوء: على العكس، لا يزعجني ابدًا.

-هل تسمحين لي برقصة إذن؟

-حسنًا، ولكن بعد قليل.

-لا بأس، لم يخبرني جهاد أن له زميلة أنيقة و رقيقة مثلك

-شكرًا، على هذا الإطراء، أنت أيضًا شاب وسيم، يسعدني معرفتك

- يبدو من مظهرك الخارجي أنكِ لا تحبين السهرات كثيرًا.

- بل أني لا أطيقها ابدًا، لكن دنيا أصَّرت جدًا أن تأتي

-أنا أيضًا قد أحضرنِ جهاد رغمًا عني، قال إنه سيبقى وحيد وبمجرد أن تضاء شموع السنة الجديدة سنغادر، لكن لا أظنه سيفعلها.

أنت على حق، لم ألاحظ أبدًا أن جهاد يبادل دنيا الإعجاب قبل هذا اليوم، أقصد أنه

-"يضحك قائلًا:

- شعرت أنه يحتاج لمبرر للقدوم لذا لم أستطع خذلانه فجئت معه، لكن يبدو أنه كان يخطط للقاء دنيا.

أقول وأنا أفتش داخل حقيبتي:

-اه واضح هذا

- هل تبحثين عن شيء ما

-أجل، حبوب الصداع، أنا عادة لا أحتمل هذه الأجواء، فإما أن أرحل بمجرد بداية ألم رأسي، وأماعليَّأن أحتمل ليلة طويلة من الألم والأرق.

-أنا لا أتمنى أن تبدأ ليلتك الأولى من هذا العام بالألم والأرق، دعينا نخرج قليلًا.

في هذا البرد

-لا بأس، إن شعرنا بالبرد سنجلس بالسيارة وأن استمر التعب أوصلكِ للبيت، دعينا نخبر دنيا وجهاد.

***

-كم أنت جريء يا صديقي، بكل ثقة تطلب منها ذلك وهي متعبة؟

-كانت متعبة حقًا، ولم أرد لها أن تبقى بهذا التعب.

-وبعد أن خرجتما من المطعم، ماذا حدث؟

-دخلنا إلى السيارة على الفور، أنت تعلم إن في مثل تلك الأيام يكون الجو شديد البرودة

-أجل يا ذا القلب الحنون، وماذا بعد ذلك؟

-لا شيء، سمعنا موسيقى هادئة، وسرت بالسيارة في الشوارع، ثم طلبت أن ننزل قليلًا لنأخذ بعض الهواء النقي "البارد" ونستمع للإذاعة، وقفنا بالقرب من بائع ذرة، أحضرت لها كوبًا ولي أيضًا، ووقفنا نتأمل الهدوء والليل والعام الجديد.

-قالت لي أتأمل، أكاد أقسم بكلماتها وتفكيرها، أنت أيها البليد من أين لك هذه الشاعرية؟

-ثم فجأة علا صوت المذياع وهو يقول الساعة الآن الحادية عشر ونصف بتوقيت فلسطين، ظننتها ستطلب العودة للمطعم أو إلى المنزل، كان الاضطراب باديًا عليّ، قالت دون أن تنظر إليّ: لا بأس، بداية جديدة لوحدي، لم لا... فقلت لها: لستِ وحدكِ أنا هنا.

يضحك كميل مقاطعًا، ويقول: حتى أنها لا تراك بعد كل هذا، يا لك من أحمق!

-بل تراني، فقد قالت لي: لم أقصدك طبعًا، أقصد وحدي دون معارفي، شاءت الصدفة أن تعرفت إليك اليوم، لكن حتمًا لن أراك ثانية، هذا قصدي في وحدي... فقلت لها: يارا، اسمك جميل و يناسب شكلك وانطباعي عن الاسم، بالتأكيد حينما قررا والديكِ تسميتكِ يارا، كان صوت فيروز يداعب قلبيهما قائلًا:" يارا الجدايلها شقر ال فيهن بيتمرجح عمر وكل نجمة تبوح بأسرارًا".

-الله، وماذا قالت؟

- ردت بهدوء وخجل: هل تعتقد إن النجوم ستبوح لي بأسرارها حقا! فقلت لها: أنت النجمة يا عزيزتي، أود أن نتحدث سويًا ونشهد النجوم على حديثنا، شرط أن نلتقي دومًا، فما رأيكِ؟

-بالتأكيد قبلت، فهذا الكلام يلين الحديد.

-فعلًا تحدثنا حتى بدأت الإذاعة بالعد التنازلي، وعندما وصل العد إلى واحد، أمسكت يدها وأغمضت عيني، وقلت بصوت يرتجف، أحبك.
- أنت تمزح، حب من أول نظرة؟ ومن أول لقاء؟

- أجل، لكنها ظنت إنها تتخيل ولم تُعلق كثيرًا على الموضوع، قالت لي: كل عام وأنت بخير، قلت لها: لن أكون بخير حتى تعديني أن نحتفل سويًا العام القادم وهنا في هذا المكان

-لماذا سكت أكمل، ماذا أجابت؟

-يبدو أنها ظنت إني أقول أي كلام وحسب، فقالت: سنرى حينها.
-أحمق وماذا بعد ذلك؟

-استمرينا في الحديث عن كل شيء، كانت أجمل ليالي عمري وأحلاها، ثم أتصل بي جهاد وقال يجب أن نوصل يارا ودنيا للبيت فالساعة الآن الثانية، لم نصدق كيف مر الوقت سريعًا خفيفًا، ساعات واقفين والبرد يلسعنا دون أن نشعر، يا لروعتها من ليلة.

وتقول إنها لا تريد المجيء لكندا، ستأتي وسأذكرك بذلك

***

يبدو أن القدر وحده من جعل جهاد يحضر هادي معه، ومكّن دنيا من إقناعي لحضور الحفل، كي نلتقي أنا وهادي وتبدأ قصتنا بعد حين، دائما تكون البدايات جميلة، ليتنا نستطيع الحفاظ على قلوبنا سليمة نقية كنقاء البدايات.

المهم الآن أن تنتهي حكاية سعيد هذا قبل أن تبدأ، عاد أبي للمنزل منذ ساعة ولم أخرج من غرفتي بعد ولن أخرج، لماذا أفتح نقاشات عقيمة معهم، لا تسمن ولا تغني عن جوع!

كيف يظنون أن شخصًا متملقًا مثل سعيد فرصة لا تعوض بالنسبة لي؟

متى ستختفي هذه الهوة الكبيرة التي تدفع والدينا للتصرف بدلًا عنا؟ لماذا لا يحين الوقت لنتحمل مسئولية خيارتنا نحن لا ندفع حياتنا ثمن لقرارتهم؟

دخل أبي غرفتي ودون أي مقدمات قال:

-اسمعي يا يارا

-نعم يا أبي

-لن تتزوجي ذلك النصراني ما حييت!

-من جاء بسيرته الآن؟

-أنا، وأنا أقولها لكِ، لا تحلمي بذلك الزواج ابدًا، ستتزوجين من مسلم سني، وقد اخترته لكِ

-حقًا، هل يعجبك؟

-أجل، وأرى انه منَّاسبٌ لكِ جدًا

-سعيد؟!

-وما به سعيد؟

-لا شيء، لكني لا أحبه

-ومن طلب منكِ أن تحبيه، لا تحبيه ولا تحبي غيره، هل هذا واضح؟

-لن أتزوج شخص لا أحبه.

-ستحبيه مع الأيام، أنه يحبك و يريد الزواج بكِ، رغم علمه بحبك لذلك النصراني..

-أن هذا ما يحيرني، وينمي الشك والخوف في قلبي، لماذا يريدني؟ لماذا أنا وهو يعلم أني أحب، وأني مُصِرة على ذلك النصراني كما تصفه، فما باله؟

- ربما يريد أن يكسب أجر عودتك للدين.

-وهل كنت مرتدة حتى أعود؟

-المسلمة لا ينكحها إلا مسلم، فما رأيك؟

-يا أبي، أنا لا أريد سعيد ولا غيره، لا تريدني أن أتزوج هادي، لن أتزوجه، لكن لن أتزوج أحد غيره.

-أنت تحلمين، غدًا سيأتي سعيد وأسرته لخطبتك وعليكِ استقبالهم أفضل استقبال، هل هذا مفهوم؟

-ماذا تقول، لا أفهم؟

- وإلا لن تخرجي من باب هذا البيت إلا للقبر، القرار لكِ

ثم خرج وأغلق باب الغرفة بقوة، لم أكن قد استوعبت بعد ما قاله لي، لم أفكر إن كان هذا حلمًا أم واقع، ولم أفكر ماذا يجب أن أفعل، يبدو أن تفكيري شُل تمامًا، بقيت جالسة في زاوية الغرفة أنتظر اي ردة فعل خارجية تساعدني على التمييز بين الواقع والخيال، بعد عشر دقائق دخلت أمي، ترددت حين رأتني أجلس في زاوية الغرفة واضعة رأسي بين ذراعيّ، اقتربت ببطء ووضعت يدها على كتفي، ثم قالت:

-إن سعيد أفضل خيارًا لك، أعطه فرصة ستحبينه أنا متأكدة، يكفي أنه يعرف بحبك لغيره ويقبل

-ولماذا يقبل، من طلب منه أن يقبل، إن خطبته لي وهو يعرف أني أحب آخر لأكبر دليل على لؤم طبعه وخباثة نفسه.

-ماذا! ما هذا الكلام! على العكس، هو شاب خلوق ومهذب ويحبك..

- يبدو أنه يعجبكم جميعًا

-أجل، هو كذلك.

-فتزوجوه أنتم إذن.

-ما هذا الهراء، ستقابلينه وعائلته غدًا، وإلا سترين ما لا تستطيعين تخيله!

أنا أحاول المقاومة، لا أريد التخلي عنهم، لا أريد الهرب أو الهجرة أو العيش وحيدة في المنفى، أخاف عليهم من نفسي ومن أحلامي، أضحي لأجلهم، وهم يريدون الرمي بي في أحضان سعيد الخبيث، لكني لا زلت مُصِرة ولن أفكر بالهجرة ابدًا، ولن أخبر هادي بشيء، كي لا يضغط عليَّ هو الأخر، ربما أكون مخطئة في حبي له، لكنه الشخص الوحيد المناسب لي على هذا الكوكب، فهل يعقل أن أتخلى عنه، لن أفعل شيئا سوى الهرب، والنوم هو مهربي الوحيد في هذا البيت، سأنام حتى يحل الغد ولنرى ماذا سيجري، فأنا أعتقد أنه بإمكاني التأثير على سعيد غدًا.

***

-كم هي عنيدة يا كميل، لكنها على حق أنا لن أخسر عائلتي مثلها، في أكثر الحالات سوء سيخاصمني والديَّ بضعة أسابيع ثم ينتهي الأمر ببساطة، لكنها ستعيش العمر كله وحيدة دون عائلة، وأن سافرنا حقًا لكندا

فستعيش بقية عمرها بلا أصدقاء أيضًا، أي حياة قاسية في انتظارها معي، مهما حاولت أن أعوضها فلن أستطيع، لكني سأبذل قصارى جهدي لأسعدها، المهم الآن أن تقبل بالهجرة، بأي طريقة كانت.

-من الجيد أنك تعرف هذا، لكن قل لي، من هو سعيد؟

-هو من يثير حيرتي حقًا، لماذا يخطبها؟ ولماذا الآن؟ يبدو إن يارا نسيت تمامًا أنه هو من أخبر والديها بقصة حبنا وفضح الأمر قبل أن نخبرهم نحن، يا إلهي كم كانت أيام قاسية علينا، وعلى يارا المسكينة تحديدًا.

-كيف حصل هذا؟

-في اليوم التالي من حفلة ميلادي الجميلة التي أقامتها لي يارا، ذهب سعيد مساءً إلى منزل خالته وطلب منها ومن دنيا مرافقته إلى منزل يارا، صعدتا معه للمنزل دون أن يفهما ما الأمر، وعندما جلس طلب أن تجتمع العائلة كاملة، فاتصل والدها بولديهِ ليحضرا فورًا، واتصلت والدتها بابنتها نور، حضر الجميع وجلسوا يستمعون لما سيقوله سعيد، نظر إلى الجميع ووضع قدمًا فوق الأخرى ثم، قال:

أنا يا عم أشعر نفسي و كأني ابنكم، تربيت مع دنيا ويارا و نور و إبراهيم وإيهاب، لطالما شعرت نفسي فردًا من هذه العائلة، وكنتم إخوةً لي، لذا فمن واجبي أن أقول ما لا تعرفونه وأتمنى ألا تغضب مني يارا!

-يا له من أحمق، هل حقًا يصدق نفسه، ينصب نفسه ولي أمر، يُحاكم ويعدم ويطلب السماح، ماذا حدث بعدها؟

-صُدم الجميع واتجهت الأنظار نحو يارا، تدخل أخاها ابراهيم، قائلًا: ما الأمر ما بها يارا، ما الذي تعرفه عنها حتى تجمعنا وتخبرنا أنت عن أختنا!

تابع سعيد حديثه بكل هدوء:

- أنها تحب شابًا ن..

فتدخل والدها وقد نفر الدم لأعلى رأسه، قائلًا: تحبين، هذا ما كان ينقصنا، الحب يا ست يارا

قالت الأم: فليأتي فورًا لخطبتكِ

قالت نور موجهة حديثها لسعيد:

-وما شأنك بها، ومن أعطاك هذه السلطة لتأتي بكل جرأة تقول ما تقول!

قال إيهاب:

- هي أختنا، والأمر هذا يخصنا، فما دخلك فيه؟!

قال سعيد:

صحيح أنت على حق، ربما ترونني الآن رجل انتهازي، ولا يستطيع كتم السر، لكني خفت أن أكتمه، فتجدون أنفسكم بعد ذلك تعضون أصابع الندم.

قال الأب:

- لماذا؟ هل بينها وبين هذا الشاب شيء أكثر من الحب؟!

سعيد: لا يا عم ابدًا، حتى أنهما يفكران بالزواج.

الام:

-جيد جدًا، نظرت نحو يارا وهي تقول: "لا تخافي يا ابنتي، الأمر عادي، إن كنتما تريدان الزواج فلا بأس بذلك".

قال سعيد:

-هل توافقون أن تزوجوا ابنتكم لشاب نصراني؟

-كانت ليلة عصيبة عليها بالتأكيد، يا له من شخصٍ أناني.

-لا أريد أن أتذكر كم تعذبت يارا في تلك الفترة، بقيت حبيسة بيتها أكثر من شهر، بلا هاتف وبلا زيارات وبلا عمل، حتى انتهت إجازتها في العمل وعادت، كان وجهها شاحبًا يميل إلى الزرقة، حينها ذهبت إلى جهاد في العمل و طلبت منه أن يوصلني إليها أن أمكن ذلك، أعطاني ورقة وضعها في ملف، ثم قال لي: سلم هذا الملف للأنسة يارا، استعرت منه قلمًا وكتبت على ورقة خارجية: أنا أسف يا حبيبتي كل هذا بسببي، سامحيني، أتمنى لو أستطيع أن أحمل عنك كل هذا الألم، وأن آخذك الآن وأهرب بكِ.

حملت الملف و سرت بهدوء كأي مواطن يبحث عن توقيع لينهي ملفه، حينما دخلت غرفتها، كانت منهمكة بالعمل، يبدو أنها لا تود الحديث مع أحد، أو أنها قررت إفراغ كل ما فيها من وجع. في هذه الملفات المتجمعة أمامها، حينما وصلت أمام مكتبها وقلت:

-عفوًا

رفعت رأسها فورًا وكأن الصوت وقع في قلبها لا آذانها، نظرت نحوي وهي تبتسم بحرص، ونظرات الخوف تعلوها، وأثار بعض الكدمات واضحة على وجهها ويديها، قلت لها والألم يعتصر قلبي، وقد بداعليَّ الحزن الشديد.

-أرجوكِ ساعديني في توقيع هذا الملف

قالت بثبات وهي تحاول إخفاء وجهها:

-حاضر يا سيدي.

ضحكت من أعماق قلبي حين قالت سيدي، رغم الألم الكبير الذي اعتراني حينما رأيتها و رأيت ما حل بها بسببي.

فتحت الملف وقرأت الورقة ابتسمت، وبدأت تكتب ثم أعطتني الملف وهي تقول:

-طلبك الآن جاهز تفضل.

شكرتها بلطف مبالغٍ فيه وانصرفت فورًا، لأقرأ ما كتبت، كان المكتوب: "تسرني مخاطرتك هذه كثيرًا، كل ما كان ينقصني هو رؤيتك فحسب، شكرا لك"

أخافتني كلماتها أكثر مما طمأنتنِ، لم أفهم ماذا تقصد، شعرت إنها تودعني، قلت في نفسي ماذا فعل هؤلاء الوحوش بها، حتى اليوم لم أجرؤ على سؤالها ماذا حصل معها، ولم أرد أن أحرجها.

-وبعدها ماذا حصل؟

- بقيت شهرًا كاملًا لا أراها، أتلقى أخبارها من جهاد فحسب.

-ألم تأخذ لها ملفًا أخر؟

- بلى بعد شهر، أردت أن أتأكد أن كان هناك من يتبعها أم نالت حريتها أخيرًا، أخذت ملف وورقة، كتبت عليها " أعلم أن وجعك كبير، لكني هنا قريب منك أكثر مما تتخيلين، أحبك"

- وماذا أجابتك؟

-كتبت لي" وأنا أيضًا أحبك"

- فقط؟

-تخيل يا رجل!

-هل هي بليدة؟

-ليس الأمر هكذا، علمت من علي بعد يومين أن والديها قررا تزويجها لأحد العرسان المتقدمين لها، كانت دنيا من اخبرته بذلك.

-وماذا فعلت يارا؟

-حاولت أن تنتحر

- حقًا؟

-أجل، حبيبتي المجنونة لا تريد سواي، وأنا أيضًا.

-فعلًا، إن الطيور على أشكالها تقع

-تقصد المجانين

-المهم، كيف حاولت ذلك؟

-أخذت نصف علبة المهدئ، ثم غطت في سبات، عندما وصل العريس وأهله، حاولوا إيقاظها ولم تستيقظ، حملها والدها فورًا إلى المشفى، وعالجوها سريعًا.

- وعندما عادت للبيت، سامحها الجميع ونسي الأمر.

-ليس بالضبط، لكن والدها قطع عهدًا على نفسه أمامها أنه لن يجبرها على الزواج من أحد أن لم تأتي على ذكري ونسيت أمري، منذ ذلك الوقت لم تشعر أحدًا بوجودي، ظن الجميع أنها نستني، تنام باكرًا وتستيقظ باكرًا وتعود للبيت في موعدها اليومي

-ومتى تريان بعضكما؟

-تأخذ مغادرة باكرة مرة كل أسبوع، ونتحدث طول الليل، وإن كان لنا مشروعًا خاصًا، أخذت إجازة يومًا كاملًا.

-هذا جيد، فلم قرر والدها تزويجها الآن؟

-لأني غبي، لم أسمع كلامها و ذهبت لزيارتهم لخطبتها بصفتي عريس فقط، وعندما علم والدها إني أنا، طردني وحصل ما حصل.

-لكنه لم يعاقبها هذه المرة؟

-ألا يكفي يومين

-بلى ولكن لا مقارنة بين ذلك العقاب وهذا

-أجل، هذا لأني أخبرته أني جئت من تلقاء نفسي، و أن يارا لا تعرف من هو العريس.

-هل اقتنع؟

-لا أعلم، المهم أنه لم يؤذها

-لكنه سيزوجها سعيد

-لا تقلق، أني أحب فتاة شرسة، نمرة لا تقبل الترويض، ستغير رأيها ونهاجر سويًا صدقني.

***

في صباح اليوم التالي، ذهبت للعمل مبكرة كعادتي، سرت و شريط حياتي يُعاد في ذاكرتي، ماذاعليَّ أن أفعل؟ هل يجب أن أنتحر مرة أخرى؟ لا أظن إنها ستنجح هذه المرة، هل سأهاجر إذن؟ أنا أحبه جدًا وهو أيضًا أنا أعلم هذا جيدًا، لكني لن أهرب، حتى أنني لم أفكر إن كنت سأتزوجه أم لا، أن

خسارته مؤلمة جدًا بالنسبة لي، لكن خسارة عائلتي وأصدقائي و ديني أكثر بكثير من خسارته، فلم لا يسلم!

نعم إن كان يحبني حقًا، عليه أن يسلم حتى يجوز لي، غير هذا لا يمكن ابدًا، لكن كيف سأطلب منه شيء أنا غير قادرة على فعله، لماذا كي أحافظ على إسلامي يجب عليه أن يسلم، ماذا لو قال لي كي أحافظ على نصرانيتي عليكِ أن تتعمدي!

يا إلهي ما هذه الدوامة التي أوقعت نفسي بها، لماذا لم أفكر منذ البداية، قبل أن يحدث هذا كله، لكنني لم أكن أعلم، كم مرة يجب عليَّ أن أُذكِر نفسي أني لم أكن أعلم، حتى أتخلص من عقدة الذنب الكبيرة هذه، على كل حال سأتصرف الليلة دون أي شعورٍ بالذنب ومع الجميع.

يأتي صوت من الخلف ينادي:

-يارا

-هادي، صباح الخير

-صباح الورد حبيبتي، كيف حالك؟

-مشتاقة لك

-أنا أكثر، هل تفكرين بموضوع سعيد؟

-لا ابدًا، فالموضوع محسوم

-أجل، أنت لي تذكري ذلك دومًا

-لكنه مسلم ويناسب عائلتي

-وأنا؟

-أنت حبيبي وسأجعلك تناسب عائلتي

-حقًا، يا لهذه الأخبار السارة، كيف؟

-بسيطة، ستسلم.

-س ماذا؟

-كما سمعت، هل يجب ان أضحي بديني و عائلتي من أجل زواجنا

-فأضحي أنا بهما!

. - ليس الرجل كالفتاة في مجتمعنا، فكر بالموضوع، يجب أن أذهب وداعًا

****

كم مرة سأقول إنها مجنونة؟

هل حقًا تريد مني التخلي عن نصرانيتي وعائلتي؟

أنا لم أطلب منها يومًا ذلك، فلماذا تفعل هذا بي؟ هذا جزاء من يحب مجنونة مثلها، أذكر أن أكثر ما شدني إليها بعيدًا عن الشكل والحضور اللطيف، هو جنونها هذا.

عندما التقينا أول مرة بعد ليلة رأس السنة، كان جهاد ودنيا اتفقا أن يتقابلا وطلبا منَّا أن نرافقهما، بعدما وصلنا للمقهى، جاءت يارا و دنيا، قبل أن تجلسا، قالت لي يارا: أنا لن أبقى مع هذين العاشقين، فكلاهما أعرفه جيدًا، بل حتى أنى مللتهما، دعنا نغادر هذا المكان، فالجو اليوم مشمس وجميل، ولن أضيعه داخل المقاهي، أُفضل أن أستمتع بأشعة الشمس الدافئة خارجًا كالعجائز.

سرت معها في الحديقة المجاورة للمقهى، على الرغم من كوني كثير الكلام؛ لم أجد ما أقوله أمامها، كانت هي فقط من تتحدث وتلقي النكات، لها

سرعة بديهية لا تصدق، ما تلبث أن تحول الحزن لفرحٍ عامرٍ في ثوانٍ، فيها كل ما أحلم به من الجمال وخفة الظل والثقافة والهدوء والتوازن، إضافة إلى الجنون، أن جنونها مميز، ليست من هؤلاء اللواتي يتعمدن لفت الأنظار بخفة ظلهن، أو اللواتي يجرحن الآخرين بكلامهن، جنونها قمة العقل، وهدوئها ضجة لا تصدق.

سرنا ساعتين، حدثتني في كل شيء، وأنا الذي قد اخترع أحاديثًا طويلة في رأسي طوال اليوم كي يحدثها به، أقف أمامها لا أجد من الكلام سوى أجل، حقًا؟، هل هذا ما حدث؟

ربما ظنتني أبله وتمنت لو أن الوقت يمر سريعًا كي تنتهي من مرافقتي، لكن لباقتها حتمًا ستمنعها من قول شيء كهذا، عندما حان موعد العودة، قالت لي: في المرة القادمة أعدك أن لا أتحدث كثيرًا، بالتأكيد سببت لك الصداع في أحاديثي الطويلة هذه، سأستمع لك، لا تقلق

لم أقدر أن أقول لها، ان حديثها يمتعني وصوتها يطربني وخفة ظلها تعيد لقلبي الفرح، وقفت أومئ برأسي دون أن تسعفني الكلمات حتى أني لم أستطع أن أرد عليها.

لكني أحبها، أنها تستحق كل هذا الحب، من الذي يستطيع أن لا يحبها؟ ربما شجر الحديقة أحبها معي في ذلك اليوم.

***

بعد ساعة من الآن سأضع حدًا لكل هذه المهزلة، لن أتزوج سعيدهم هذا حتى لو كلفني الأمر حياتي، بماذا يفكر أريد أن أفهم، هل يظن كونه يعلم بحبي لهادي سيضغط عليّ، سيأخذني لبيته جارية خانعة، ولن يستطيع أهلي الحديث معه فهو سيكون في نظرهم المنقذ، يا لتفكير هذا الولد المستفز!

على كل حال يجب أن أتجهز الآن وأحسن التصرف، إن هادي يحاول الاتصال بي للمرة السادسة هذا اليوم، لكن لن أرد عليه، فهو الآخر يجب أن يفهم إن الحياة ليست بهذه البساطة التي يتخيلها، عام ونصف من الحب والخوف والمشاكل، أيامُ مليئة بالأحداث، كادت أن تودي بي، وأعتقد أنها ستودي بي في يوم من الأيام.

يأتي صوت من الخارج يقول: يارا، هيا جاء خطيبكِ!

أقسم إن هذه العائلة مدعاة للجنون، أي خطيب هذا الذي جاء؟

هل اعتبروا سعيد خطيبًا لي وأنا لم أطق أجلس معه بعد؟ إن هذه التصرفات هي من ستدفعني للهرب.

كان سعيد جالسًا في منتصف غرفة الضيوف، لم أره ينال كل هذا الاحترام من قبل، سوى مرة واحدة، عندما وشى بي، أنهم يجلسون كتلك المرة، والدي بجانبه، وأخي جوار والدي، وفي المقابل أمي ونور ودنيا وأم سعيد وخالته.

قالت ام سعيد:

- اجلسي العروس مكانك يا دنيا وجدي لكِ كرسيًا.

قلت:

-لا داعي، ابق مكانك يا دنيا، سأجلب لي كرسي.

قالت أمي:

- ألن تسلمي على الضيوف يا ابنتي.

قلت:

-بلى، كنت على وشك ذلك.

فصافحت والدة سعيد أولًا وقد حضنتني فجأة وهي تقول: ما شاء الله ما شاء الله، ثم خالتي أم دنيا و أخيرًا دنيا وقد شددت على يدها كثيرًا، ثم سرت نحو الكرسي لأجلس، فقال أبي:

-نسيتِ سعيد يا ابنتي

فقلت:

-لم أنسه، أهلا سعيد.

فقال سعيد:

-هكذا، ألن تصافحيني!

قلت:

-معذرة، أنا لا أصافح الغرباء.

قال:

-لكنكِ تصافحين ذلك النصراني، رأيتك بأم عيني وأنت تصافحينه!
فقلت: وكيف تقبل على نفسك زوجة تصافح الآخرين، هل جئت هنا لتتحدث عنه

تدخل اخي إبراهيم قائلًا: اصمتي ولا تعودي لمثل هذا الكلام.

أشار له سعيد بيده وقال:

-أنا أقبل لإني سأغير فيكِ الكثير.

قلت:

-ولماذا تتعب نفسك وتغيرِ اختر واحدة كما تريدها فحسب

قال:

- بل أن بي متعة ترويض النمور

ضاج أبي كثيرًا وقال:

- لننهي هذا النقاش، تفضلي يا أم سعيد تحدثي، نحن نستمع لكِ.

لم أحتمل أن أسمع شيئًا، انسحبت فورًا إلى المطبخ بذريعة تقديم القهوة، بعد ثوانٍ لحقت بي دنيا وقالت: ماذا سوف تفعلين؟ سيقرءون فاتحتك بعد قليل، قلت لها:

-لا تقلقي، ودخلت أختي نور، قبل أن أكمل الجملة

وقالت:

-يارا حبيبتي لم تتعاملين معه هكذا سيصبح زوجك قريبًا!

قلت:

-أنتِ تحلمين، وأخذت القهوة ودخلت إليهم.

قال أبي:

-قدمي القهوة لنقرأ الفاتحة

فقلت:

-لكن يا أبي من المفترض أن تسألني عن رأيي، وإن كنت موافقة أن يصبح هذا الرجل زوجي.

قام أبي من مكانه، وقال:

-هل توافقين عليه يا ابنتي؟!

أشحت نظري عنه وقلت:

-لا يا أبي، لا أريده.

بدأت الأصوات تعلو حولي، إخوتي يتمتمون بكلمات لا أفهمها و سعيد يتحدث مع أبي بعصبية، وأمي تحاول تهدئة أم سعيد، وأنا لا أدرك ما الذي يجري، فجأة صحت بالجميع. وقلت:

-كفى، سأخبركم شيئًا، لن أتزوج سعيد، والجميع هنا يعرف أني لن أتزوج سوى هادي أو لن أتزوج طيلة حياتي.

قال إيهاب:

-لن تتزوجي إذن!

رد إبراهيم:

-بل ستتزوج سعيد والآن سنقرأ الفاتحة.

قلت بعد أن استجمعت قواي وتنفست الصعداء:

- هادي سوف يسلم وسنتزوج، وانسحبت فورًا إلى غرفتي تاركة خلفي بركان تحت الجليد.

***

لا أدري ما الأمر، كنت جالسًا مع والدتي، وكان أبي في المطبخ منشغلًا بتحضير فطيرة التفاح التي تعلمها من إحدى زميلاته في قداس الأحد، وفجأة دُق الباب بصوتٍ عالٍ دقات سريعة متتالية، ذهبت لأفتح الباب، وكان الفضول قد دفع والديّ للحاق بي، وإذا به جهاد، ينهج بصوت مرتفع، وقال دون أن ينظر حوله:

- هل صحيح أنك ستسلم؟

شهقت أمي فورًا وبدأ نفسها يضيق، حملتها أنا وأبي وتبعنا جهاد لغرفة الجلوس، قالت وهي تحاول جمع أنفاسها:

- هل حقًا س.. تس.. لم يا هادي!

قلت:

-لا يا أمي، إن جهاد بالتأكيد يمزح، ولا علم لي بما يقول

تقول:

-لا أصدقك، لن يقول هذا الكلام من تلقاء نفسه

قال جهاد:

- أعتذر جدًا، في الحقيقة كان تحدي بيني وبين أصدقائي، إن كنت أستطيع أن أخيف هادي أم لا، ولم أنتبه لوجودكما، معذرة.

الام:

-لا أصدق، لست من هذا النوع يا جهاد، أنا أعرفك جيدًا.

قال الأب:

-هو ليس من هذا النوع، لكن أصدقاء السوء يغيرون المرء سريعًا يا برناديت.

قالت:

-أتظن ذلك حقًا.

قلت لها:

- يا أمي، هل يعقل أن أسلم وأنا تلحمي، ولدت وترعرعت في بيت لحم مهد المسيح، لا تقلقي.

انسحبنا بهدوء، ووقفنا في الشارع وقلت له:

-ما هذا يا علي، كادت إشاعتك أن تقتل أمي

قال:

-أي إشاعة، يبدو إنك لا تعرف!

-أعرف ماذا؟

-ألا تعرف أن سعيد ذهب لخطبة يارا؟

-بلى، ومن الصباح وأنا أحاول الاتصال بها وهي لا تجيب، لا طاقة لي لانتظار الغد حتى أراها وأعرف ما جرى، أرجوك اتصل لي بدنيا فهي بالتأكيد تعرف.

-هي فعلًا تعرف، وهي من قالت لي أنك ستسلم.

-هل يارا قالت لها ذلك لدنيا؟

-بل قالته للجميع

-أي جميع؟

-لسعيد وعائلته وعائلتها أيضًا

-ماذا؟

-أجل، هل تعني أنك لا تعرف شيئًا عن الموضوع؟

-قابلتها في الصباح دقيقة أمام عملها، وقالت لي يجب أن تُسلم لا حل سوى هذا؟

-وهل ستسلم حقًا، وتذهب معي لصلاة الجمعة؟

أذهب معك. -حين تذهب معي لقداس الأحد

-ماذا يعني هذا الكلام، لم فعلت يارا هذا بنفسها وبك؟

-لا أدري، سأحاول الاتصال بها مجددًا

-حسنًا، وأخبرني ما سيجري، ألم تقل إنك تحب جنونها، تحمل إذن!

-ماذا سيجري؟ أنها مجنونة!

***

بالتأكيد قد وصله الخبر، لهذا اتصل أربع مرات متتالية، لكني لن أجيب، سأدعه حتى الصباح ليفكر بالأمر.

لكنه لم يجد صبرًا حتى الصباح، استمر بالاتصال، ثم بعث لي رسالة مكتوب فيها: " كادت أمي أن تموت لمجرد سماعها أني قد أسلم" هل يظن أن والديّ سيفرحان حينما أصبح نصرانيةُ مثلًا، لم أعرفه أناني بهذا الشكل، لكنه عاود الاتصال مجددًا، هل أجيب؟ وماذا سأخبره؟ لماذا قلت أنه سيسلم؟

حسنًا سأجيب هذه المرة ولنرى، ليحدث ما يحدث لم أعد أهتم.

حملت هاتفي و أجبت:

-نعم

-هكذا يتحدث الناس

-وكيف يتحدثون؟

-لا أدري

-جيد، هل تريد شيء؟

-من قال لكِ إني سأسلم؟

-الذي قال لك إني سأتخلى عن إسلامي

-ومن طلب منك ذلك!

-هل تحتاج إلى طلب، أنت تريد الزواج بي، وكل منَّا يحمل ديانة مختلفة في داخله، صحيح أن رب الأديان واحد، لكن هذا لا يجعل زواجنا شرعيًا.

-حسنًا؟

-هذا يعني، أنه يجب أن أتبع دينك حتى نتزوج في الكنيسة، أو تتبع ديني لنتزوج بعقد إسلامي

-لا هذا ولا ذاك

-إذن سنصبح بوذيين، هكذا يتخلى كلانا عن دينه ونخسر سويًا عائلاتنا وأدياننا ونكسب بعضنا، أليس كذلك!

-أقسم انك م

-مجنونة، أعرف

-جيد، لن يتخلى أحدنا عن دينه

-كيف؟

-سنتزوج زواجًا مدنيًا، معترفُ به في كل أنحاء العالم، يضمن لكِ دينكِ ويضمن لي ديني، ونتشارك العمر سويًا.

-في كندا؟

-لم يبقى أمامنَّا حل أخر، أم أنك تودين الزواج من سعيد؟

-لا تذكرني به، المهم لقد قلت أمام الجميع أنك ستسلم، ماذا أفعل؟

قلته من -أمامنًّا خيارين لا ثالث لهما، الأول أن تقولي لهم، إن هادي لن يسلم، وإن هذا الكلام تلقاء نفسك لتتخلصي من سعيد قد يقولوا إني طلبت هذا منك ولم تقبل، وسيزيد الأمر سوءًا.

-والخيار الثاني، أن نقنعهم حقًا، بأني سأسلم، أو قد أسلمت وهكذا سيشيع والديكِ أنهما نجحا في تحقيق مطلبهما وجعلاني أسلم، هكذا سيكون بإمكاني مرافقتك دون خوف منهم، وسنعتبر بمثابة الخطيبين، وهذا سيكون لصالح عائلتك أمام الناس.

-وبعد ذلك؟

-نكون في هذا الوقت أرسلنا أوراقنا للسفارة الكندية وننتظر حتى يجيء الرد، وفي الوقت المناسب نهرب معًا، إلى حيث لا أحد.

-أليس من الأسهل أن تسلم؟

-أليس من الأسهل أن تسكتي؟

-لا أدري يا هادي، خياراتك صعبة

-لا تنسي انه لو أشاع والديكِ موضوع إسلامي، لن يتفاجأ الناس بزواجنا، حتى أننا سنعفي عائلتك من الإحراج أمام الناس، سأكون بنظر الناس مسلم.

-ماذا لو علمت امك، انظر لمزحة صغيرة ماذا فعلت بها

-لا تقلقي سأخبرها بالقصة كاملة

-طيب، ما رأيك أن نقنع والديّ أنك أسلمت ونعقد عقد القرآن هنا، وبعد ذلك لا يهم

-كيف لا يهم، أولًا العقد لا يجوز، إلا إذا تشهدت أمام الشيخ

-و لم لا تتشهد، أيصعب عليك قول: أشهد ان لا اله الا الله وأشهد ان محمدا رسول الله

-وبعدها؟

-لا يهم

-ان عدت لنصرانيتي فسيعتبر العقد باطلًا، ثم أنا لم أجبرك على فعل شيء كهذا

-وأنا لا أجبرك ولن أجبرك أبدا، لكني أبحث عن حل يرضي جميع الأطراف

-أعرف يا عمري لا تقلقي

-حسنًا إذن، فأنت من الآن حبيبي الذي أسلم، لكن ارجوك وضح لأمك الحكاية كاملة

***

قبل أن أوضح الموضوع لأمي، سأطلب من والدي أن يساعدني في إخبارها وتوضيح الأمر لها، إنها تحب يارا كثيرًا، عرفتها بها بعد أن صارحتها بحبي لها، التقينا يومها جميعًا في مقهى، قالت يارا لأمي: أنت شديدة الجمال، ولا يبدو أن لكِ ولدًا في الثامنة والعشرون من عمره.

إنها جملة سحرية للأمهات، على ما يبدو، منذ تلك اللحظة وأمي تحبها، وحين قالت لها أن اسمها يارا، بدأت تغني لها يارا ال جدايلها شقر. كنت فعلًا قد طلبت من يارا أن تجدل شعرها عندما تأتي لرؤيتنا، فهي تحب جدا جدل شعرها، كانت بريئة كالأطفال، ولم يطل الحديث بينها وبين أمي

كثيرًا، فقد كان من المفترض أن تعود يارا للبيت في موعدها اليومي، ربما لو طال الحديث أكثر قليلًا، لسألتها أمي هل تذهبين لقداس الأحد وفي أي كنيسة؟

لكن لم يكن يعلم أحدنا بدين الآخر بعد، بعد أن التقينا أنا ويارا في الحديقة ذلك اليوم مع جهاد و دنيا، تكررت لقاءاتنا كثيرًا، وفي إحدى المرات، كنا جالسين في الحديقة، فرأت شجرة ياسمين تعلو مقعدنا، وقفت على المقعد وقطفت زهرة ياسمين، لكنها لم تدرِ كيف تنزل، وبحركة بريئة عفوية منها، وضعت يدها على كتفي الأيمن ونزلت، ثم قبضت يدها على الياسمينة و راحت تشمها، دون أن تدرك ماذا حدث، نظرت نحوها وأنا ابتسم، قالت: ما بك؟

قلت ما تذكرته من قصيدة نزار قباني حينها:

يدكِ التي حطت على كتفي
كحمامة نزلت لكي تشرب
عندي تساوي ألف مملكة
يا ليتها تبقى ولا تذهب

احمر وجهها وراحت تشم الزهرة أكثر، وضعت يدي فوق يدها المقبوضة على الياسمينة، وقلت لها:

-أحبكِ

لم تجب، ابتسمت فقط، ثم قالت: أشعر أنى سمعتها منك من قبل قلت:

-نعم منذ أن التقينا قبل ثلاثة أشهر في ليلة رأس السنة

قالت:

-حقًا قلتها، ظننت أنه كان يُخيل لي

قلت:

-أنت حبيبتي من أول لحظة رأيتك بها، فما رأيكِ؟

قالت:

-وأنا أيضًا أحبك، وعفويتي هذه معك، ما هي إلا ارتياح لك وفرح بك

***

اجتمعت حولي العائلة كاملة وبدأوا بالتحقيق معي والدهشة تعلو وجوههم، قال أبي وهو ينظر بعينين تبحثان عن حل:

-حسنًا يا يارا، قلتِ أمس ما قلتِ، أمام سعيد وأسرته، ولم نشأ أن نجادلكِ كثيرًا، فهيا قولي الآن أمام إخوتك وأمامي، هل أسلم هادي حقا؟

-لا لم يسلم

-هل تهزئين بنا؟

-لا، أنا قلت انه سيسلم ولم أقل أنه قد أسلم.

-حسنًا، وماذا بعد ذلك؟

-بعد ذلك، الأمر لكم، ها هو رضخ لطلبكم وقرر أخيرًا أن يسلم، فماذا تريدون أيضًا؟

قالت أمي وهي حائرة في أمرها وتحاول التصديق:

-هل يحبك لهذه الدرجة حقًا، حتى يترك دينه ويسلم.

قلت:

-ماذا يجب أن يفعل أكثر من هذا لتقتنعوا؟

قال ابراهيم: لا نريد أن يفعل شيء، ولا نريد أن يسلم، وأن أسلم فلن يحلم بكِ أيضًا.

قلت:

-ماذا؟ أنكم بهذا تدفعوني لعصيانكم دفعًا، وكأنكم تطلبون مني التخلي عنكم.

قال والدي:

- لا يا ابنتي، لن نفعل شيئًا كهذا، ادعهِ لمنزلنا بعد الغد، أريد أن يأتي وهو مسلم، وسأختبر ذلك، كوني على ثقة.

نظرت باحثة عن النجدة، وسط هذه العائلة المحتارة، لم أجد سوى أختي نور، التي قالت فورًا:

- على كل حال يا أبي، لا يهم أن نجح في اختبارك أم لا، المهم أن يسلم حتى نستطيع تزويجها بأمان

قلت لهم:

-حسنًا إذن، مساء الخميس موعدنا، شكرًا لكم على هذا الاجتماع الرائع!

أخيرًا تركوني وحدي، لست أعلم إن كان لي الحق في أن أشعر بالسعادة فقد وصلت معهم لحل يرضي الجميع، أم إن هذه السعادة مزيفة وما هي إلا محض كذبة ستولد كذبات عدة!

هل أتصل بهادي؟ حتمًا سيكون منهمكًا الآن أكثر مني في إقناع والدته، ولست أدري إن كانت ستقبل بذلك أم لا، على كل حال سأنتظر أن يتصل هو بي، فلا داعي لأن أزيد الطين بلة

***

كنت أحاول جاهدًا إقناع أمي بهذه اللحظات أن كل ما سأقوم به لن يكون أكثر من كذبة بيضاء تريح جميع الأطراف، فلست من محبين الكذب، لكن للضرورة أحكام، قلت لها وهي تنظر إلي دون أن تصدق ما أقول:

-أمي، هل فهمتِ؟ الموضوع مجرد خدعة

-أي خدعة هذه، ستكذب على الناس، وتدعي الإسلام وتقول خدعة!

-أجل، فقط أريد كسب الوقت وإقناعهم حتى يحين موعد السفر.

-أي سفرٍ هذا؟

-سنهاجر يا أمي، ونتزوج مدنيًا، حيث يحافظ كلًا منَّا على دينه

-هل ستهاجر أيضًا؟ وابقى مع والدك العجوز وحدنا؟

-سأرسل في طلبكما بمجرد أن استقر هناك.

-لا يهمني هذا الكلام كله، المهم الآن هو أن الأديان موضوع لا يحتمل المزاح ولا اللعب فيه، فإن أنت نطقت الشهادتين، أصبحت مسلمًا يا قرة عين امك، ثم ماذا لو فعلتها حقًا، وكنت تخدعني أنا؟

-ماذا أفعل؟

-ماذا لو أسلمت فعلًا؟

-فلماذا أخبركِ الآن؟

-كي لا يحدث معي ما حدث عندما جاء جهاد، هذا يعني أن جهاد ليلتها لم يكن يمزح؟

-لا يا أمي، لا يمزح، لكنها خطة صدقيني، أبي تكلم ارجوك..

-لا تخافي يا برناديت، ابنك صادقٌ معنا، ولا يفعل ما تقولين ابدًا، بل أنه لشدة خوفه عليكِ أخبركِ دون أن تعرفي شيء.

-حسنًا، سأحاول أن أثق بكما، لكن بشرط

-أنا جاهز

-أريد أن يبقى جواز سفرك معي.

-لماذا؟

-لن أعطيك إياه حتى أتأكد أنك لا زلت على دين والديك، وأن الموضوع خدعة فقط.

-حاضر يا أمي، سأحضره في الحال.

ها أنا الآن قد نجحت في إقناع أمي وأخيرًا، وبالتأكيد فعلت يارا الأمر ذاته مع والديها، ولم يبقى أمامنا سوى القليل، يجب على يارا أن تذهب غدًا وتصدر جواز سفر لها، فلن نتمكن من تعبئة استمارة الهجرة دونه، وقد احتاج إلى إصدار جواز سفر جديد لي، فلن أبقى تحت رحمة قرارت أمي.

يمسك هادي هاتفه المحمول، وقبل أن يطلب رقم يارا، تتصل هي به يجيب بفرح

-أهلًا حبيبتي

-أهلا بك، يبدو من صوتك أن الأمور لديك تسير على ما يرام

-أجل، تقريبا لكن أمي أخذت جواز سفري ولن تعطيني إياه قبل أن تتأكد أني لن أغير ديني

-هل تقصد أنه سيبقى معها حتى موعد سفرنا؟

-أجل

-وكيف ستذهب للسفارة؟ وكيف تحصل على الفيزا وهو معها؟

-لا بأس، فهو سينتهي بعد ستة أشهر، هذا يعني أنه يجب عليَّ إصدار واحدٍ جديد وإلا خسرت الفيزا

-حسنًا إذن، أنا أيضًا يجب أن أصدر جواز سفر، فليس لدي واحد

-أجل، لذا سنذهب غدًا صباحًا و نصدر جوازت سفر لنا

- رائع، بدأت أشعر بالحماس يا هادي

-هل سار الأمر مع عائلتك على ما يرام؟

-تقريبًا، أبي يريد لقاءك بعد غد، وسيختبر أن كنت مسلمًا أم لا

-لا بأس، غدا خذي إجازة من العمل، نذهب صباحًا لإصدار الجوازات، ثم نجلس في الحديقة، تعلميني قليلًا.

-حسنًا إذن إلى الغد

-يارا

-نعم

-هل تذكري، كيف اكتشفنا أن كل واحدٍ منَّا على دين مختلف؟

-وكيف لا أذكر، كانت صدمة عمري.

-وعمري أيضًا، لا تظني وحدك المصدومة

-طيب، صدمة عمرنا، جيد هكذا؟

-جيد، كنتِ سعيدة بأن الغد عيد الفصح و ستعطل الدوائر الحكومية جئتِ إلي وأنت تقولين:

أفضل ما يفعله المسيحيون لنا أنهم يهدونا العطلات في الأيام الباردة والمشمسة أيضًا.

-هههههه، أجل، صُدمت أنت حينها وقلت لي: لم أفهم، ماذا تقصدين يفعلونه لنا؟

-ثم قلتِ ببرود: أقصد العطلات التي يهديها المسيحيون لنا كمسلمين، أن هذا جيد جدًا

برزت عيناك حينها وقلت:

- من هم المسلمين يا حمقاء؟

- "هل أنا حمقاء؟"

أجبت دون تفكير

-نحن

-هذا يدل أنكِ حمقاء

-أجل أذكر

فقلت لي:

لكني نصراني!

- لا أنسى كيف ضحكتِ بخوف، لم تستطيعي تحديد إن كنت أمزح أو أتكلم جديًا

-فعلًا، كنا قد التقينا خلال الشهور الثلاثة الأولى ٦ مرات، وكانت كلها أحاديث عن الآخرين، أو عن عاداتنا وأشياءنا التي نحب، لم نتطرق يومًا لموضوع الدين

-بعد شهر من حبنا اكتشفنا ذلك، لولا عيد الفصح ربما لبقينا لرمضان لا نعرف دين بعضنا!

-لكنك جئت مع جهاد، لذا ظننتك مسلمًا مثله

-وأنا ظننتك مسيحيةً مثلي ولكِ صديقة مسلمة وهي دنيا، لهذا عرفتها بجهاد، ولم تتعرفي به؛ فكلاكما على دين أخر

- يا لهذا الذكاء! عدت يومها للبيت كمن صُعقت بالكهرباء لشدة الصدمة

- وأنا، دخلت البيت وذهبت لأمي فورًا وقلت لها: يارا مسلمة لم تصدقني في البداية، لكنها حين علمت بذلك صُدمت.

-غريب إن جهاد، لم يخبر أحدنا بذلك.

-سألته حينها، قال لي: طننت إنكما تعرفان هذا، و قررتما تحدي الظروف، فكلاكما مجنون وتفعلانها.

- بقينا لا نتحادث شهر كامل، كنت أذكرك دومًا، وكلما رأيت جهاد سألته عنك

- وأنا أيضًا، كنت أفتعل المواقف، كي أستطيع أن أسأله عنكِ دون أن يشعر بشيء

- ثم قررنا أن نعود صديقين وحسب

-أجل، بقينا أصدقاء ثلاثة أشهر، كنت لا أستطيع التوقف عن مراقبتك طيلة لقاءاتنا، وكنت أكره كل من يخرج معنا ويشاركني فيك.

-تقصد حولنا الصداقة لمدة ثلاثة أشهر، كنت كلما اقتربت منك إحداهن يشتعل الغضب في رأسي، وأتي إليك قائلة: أريدك في حديث جانبي.

– ولم تقولي شيئًا مهمًا في هذا الحديث الجانبي، لكني كنت أسعد إنسان في تلك اللحظات، أرى الغيرة والحب في عينيكِ، في الواقع أنا من كان دومًا يمنع الشباب من الحديث معك، فإن رأيت أحدهم يحاول أن يقترب منك، أخذته في حديث جانبي، وقلت للمسلم إنك مسيحية وللمسيحي انك مسلمة.

– أقسم أنك أنت المجنون، لهذا لم أستطع الاحتمال، عندما جئتني بعد انقضاء الثلاثة اشهر وقلت إنك تحبني وتريدني زوجة لك.

– عدنا فورًا لبعضنا، وكانت حفلة عيد ميلادي، أفضل مناسبة لتتويج هذا الحب

– كانت أجمل أيام حياتنا

– أعدك يا حبيبتي أن القادم أجمل

– أتمنى ذلك، وأنا أعدك أن أفعل ما بوسعي لإسعادك

–تصبحين على خير، سأنتظرك صباحًا بالقرب من منزلك، لا تنسي ذلك.

– حاضر

Top of Form

***

في صباح اليوم التالي، التقينا أنا وهادي بالقرب من البيت، توجهنا نحو الداخلية والجوازات، وطلبنا إصدار جوازات سفر بسرعة للضرورة، انتظرنا ما يقارب الساعة حتى صدرت، أخذناها وذهبنا إلى جهاد في العمل، طلبنا منه أن يحتفظ بجوازات السفر هذه، وألا يعطيها لأحد سوانا، مهما كانت درجة قرابة هذا الشخص

عند الظهيرة جلسنا في الحديقة، وبدأت أشرح لهادي، من هو الرسول ومن هي عائلته وما هي أركان الإسلام والمذاهب الأربعة، كان يدون كل ما أقوله كطالب نجيب، لكن هذا لم يمنع حساسيته تجاه الموضوع، ورغم علمي أن الحكاية لن تتجاوز الكلام الخارجي، إلا أنني لم أستطع إجبار هادي على الاستمرار في هذه اللعبة، وطلبت منه أن يعيد التفكير بالموضوع، وقلت إن بإمكاني إخبار عائلتي إنها مجرد كذبة مني لأتخلص من سعيد، لكنه رفض بكل إصرار وطلب إكمال ما بدأنا به.

***

جلست في المساء أحفظ كل ما تعلمته من يارا ظهرًا، كانت أمي تتابع برنامجًا غنائيًا في التلفاز، لا تدري ماذا أفعل، رأتني أردد كلمات لم تتمعن بها، لكنها وعلى حين غرة أخفضت صوت التلفاز، فسمعتني وأنا أقول: أمه آمنة بنت وهب، حدقت بي مستغربة، ثم قالت:

- حتى عند أصعب إمتحاناتك لم أرك تدرس بهذا النهم

- أمي فقط هذا اليوم أرجوكِ، إن غدًا أهم يومٍ في حياتي، وإن نجحت في إقناع

والديها بإسلامي، ستحل جميع مشاكلنا.

- هل تعتقد إنه سيصدق من أول جلسة؟

- سأقنعه، ولن يفكر في سؤالي مرة أخرى

-لا أظن ذلك أبدا، ما هذا الزمن؟ نربي أبنائنا طيلة حياتنا ليتخلوا عنا في أول فرصة تتاح لهم.

-أمي حبيبتي، أنت تعلمين أن الأمر ليس كذلك، ثم أن جواز سفري معك، ولن أستطيع السفر أو الزواج دونه.

-لنرى ماذا ستفعل في الغد، رغم أن قلبي ُيحدثني بما سيجري.

- لا تقلقي أمي، أنا أحبكم كثيرًا وكل ما أريده أن نعيش نحن الأربعة سويًا.

***

يبدو أن والدي قد حضر لهادي قائمة طويلة من الأسئلة، أكثر من توقعاتنا بكثير، لا أستطيع تخيل هادي وهو جالس بين أبي وأخوتي وهو يحاول الإجابة عن كل ذلك الكم من الأسئلة، فليكن الله في عونه وعوني أيضًا.

ما الذي يريده الأهل أكثر من شابٍ يحب ابنتهم ويريد الزواج بها و يحافظ عليها، لم كل هذه الشروط والموافقات والاختبارات إذن؟

لو كان الخيار لي لما ترددت لحظة واحدة لكنت قد تزوجته منذ مدة طويلة، وربما كان لدينا أطفال، لكن مجتمعاتنا لا تزال تعتبرنا من ضمن ممتلكاتها، ما زالت العائلات تقحم نفسها في شئون غيرها، الكل يتدخل والكل يبدي رأيه، يجب علينا أن نعيش حياتنا كما يشاء المجتمع؟! لا كما نشاء نحن، المهم أن نحافظ على احترام الناس لنا، لكن لماذا كل هذه التبعية والتأثر في أراء الآخرين؟عندما يختارون لنا حياتنا هل سيحيوها بدلًا عنا؟ هل سيتحملون مسئولية فشل هذه الحياة مثلًا؟ بالتأكيد لا، نحن مجتمعات تجيد إيجاد الأعذار دومًا، مهما كانت النتيجة، دومًا سيكون هناك مبررات جاهزة، فلم كل هذه المغامرة إذن؟

نحن دوما نحاول أن نعجب الآخرين، حينما نرتدي الملابس نبحث عن أكثر ما سيبدو مميزًا في نظر الآخرين، وحينما نقرر الحديث نختار كلماتنا بعناية فائقة كي ندهش من حولنا بثقافتنا ورجاحة عقلنا، وبالتأكيد حينما نتزوج سنحاول أن نرضي المجتمع، بأن يكون هذا الزواج لائق بمن حولنا، فنختار مثلًا شابًا وسيمًا يمتلك عملًا جيدًا و منزلًا ولا مانع إن كانت حالته المادية فوق المتوسط، فإن هذه المقومات هي أول ما يهتم بها من حولنا، لطالما كان السؤال الأول، ماذا يعمل خطيبك؟ بالطبع كل التحليلات ستنطلق من هذه الإجابة، لا أحد يفكر في أخلاقه في مكنوناته، لا أحد يبحث عن الجوهر نهائيًا، لا يفكر أحد بمدى التوافق بين الشريكين، لن يفقهوا أبدًاأنا قادرين على الاختيار وتحمل مسئولية اختياراتنا هذا.

دُق الجرس، جاء هادي سأذهب لأفتح له الباب وأكون أول المرحبين به.

***

ما كدت أقرع الجرس حتى فُتح الباب، تخيلتها خلف الباب بفستانها الأسود الجميل وبشعرها الأشقر المجدول كما اعتادت أن تجدله دومًا، ومكياجها الناعم، مددت يدي وقدمت باقة الورد قبل أن أدرك أن والدها من فتح الباب

هكذا ومنذ البداية أجده أمامي، يبدو أن الأمر جديٌ ومخيف أكثر مما تخيلت بكثير، دخلت البيت وتعرفت بعائلتها لكن دون تركيز، كانت واقفة في آخر الطابور تشع بنورها من بعد، لم أرى سواها، وفي الحقيقة لا أعلم كيف تجاهلت الجميع واتجهت نحوها وقدمت لها باقة الورد وهي تبتسم بخجل.

جلست في منتصف الغرفة حسب ما طلبوا مني، جلس والدها على يساري وأخاها الكبير إبراهيم على يميني، حاولت يارا جاهدة أن تجلس بالقرب

مني، لكنها لم تستطع أن تقترب أكثر فجلست بجوار أخيها إيهاب، بدأ والدها الحديث وقال:

- ها أنت هنا من جديد، كنت قد رأيتك قبل ما يقارب الشهر وأنت نصراني وتريد الزواج من يارا، فما الذي جد عليك حتى تجيء الآن بذات الطلب؟

- أنا يا عم، في الحقيقة...ا... قد أسلمت ألم تقل لك يارا؟!

- دعك من يارا ولا تلتفت إليها، أخبرتني نعم لكن لماذا أسلمت؟

- أسلمت لإني أريد الزواج بها، فهل ستقبل يا عم؟

- قال إبراهيم و التوتر باد عليه: وكيف نضمن أنك أسلمت حقًا؟

- ها أنا أمامك، أفعل ما تريد لتتأكد، أن أردت امتحني.

- ولم لا سنمتحنك، ولكن لست أنا من سيقوم بهذا، بل والدي

- فأنا جاهز يا عمي، تفضل

- هل نطقت الشهادتين يا بني؟

- نعم، بالتأكيد

- أين؟

- لم أفهم، ماذا تعني بأين؟

- أعني في أي مسجد؟ أمام أي شيخ؟

قاطعه إبراهيم ضاحكًا" وقال:

- ربما أمام يارا " وواصل الضحك متهكمًا

- نعم، هو كذلك، ولا أجد في الأمر ما يخجل

تحدثت يارا وأخيرًا، قالت: أبي أليس نطق الشهادتين أهم من أي شيء آخر، لا يهم أمام من، أليس كذلك؟

– يا بنتيبالطبع مهم، لكن يجب أن نتأكد من ذلك، لهذا سيذهب الآن أخاكِ إبراهيم لينادي الشيخ أبو مصطفى كي ينطق الشهادتين أمامنًا جميعًا، هيا يا إبراهيم ولا تتأخر.

عادت يارا تقول بقلق وهي تنظر نحوي تارة و نحو والدها تارة أخرى:

–أبي، هل هذا ضروري، قلت لك إنه أسلم، وأنت طلبت اختباره وها أنت تحمل ورقة أسئلة طويلة، فاسأله وتأكد بنفسك من هذا.

– لا تقلقي يا بنتيسأسأله، وربما لا نحتاج لكل هذا، أن فعل ما طلبنا منه أمام الشيخ

يريدون إرغامي على شيء لا أريده، لكن أنا من أدَّعي هذا الشيء، ماذا أفعل يا إلهى، أهم يدركون أنى أكذب ويريدون التأكد، أم أنها مؤامرة منهم لجعلي أسلم، بدأ العرق يتصبب مني، والوقت يمضي بسرعة كبيرة، والشيخ سيحضر في أي لحظة، إن يارا تنظر إلي والخجل يعتريها، تشير بحاجبيها لي بأن أذهب، بعدما يئست من ذلك دخلت غرفتها، لكن كيف لي أن أذهب وأتركها في هذا الموقف الحرج، أنا الآن في أكثر موقفٍ حرج يتعرض له إنسان، "يارب أنقذني"

. دُق الباب ودخل إبراهيم برفقة الشيخ ولم يعد أمامي سوى خيارين، إما أن أنطق الشهادتين الآن وحين أعود أكفرعما فعلت، أو أن أحافظ على مبادئي ونفسي وأهرب؟

جلس الشيخ بالقرب مني وقال:

- يا بني، هل تدرك ماذا ستفعل؟

- أجل يا عم، أقصد يا شيخ

- وأنت متأكد من ذلك و مقتنع به؟

- بالتأكيد

فردد ورائي إذن " أشهد أن لا إله إلا الله"

لم أجد بدا من الترديد وراء الشيخ، فإن أنا انسحبت الآن لن أحلم بيارا طيلة حياتي، وقد أقذف بها إلى أحضان سعيد، وهذا ما لا أريده، لذا رددت وراءه بتردد وقلق، وما لبثت أن قلت:

- اش..

حتى دُق الباب من جديد، لكنها دقات غاضبة وسريعة، من هذا المتطفل المنقذ الذي جاء في الوقت المناسب تماما.

فتح إيهاب الباب، قال:

- تفضلي يا سيدتي، من تريدين؟

قالت:

-ان لي ابنًا ضائعًا جئت أبحث عنه هنا.

- إنها أمي، يا للهول!

- أمي، ما الذي جاء بكِ الآن؟

- جئت لألحق بك قبل أن تتمادى في الخطأ أكثر يا قرة عيني.

قال والد يارا:

-أي خطأ، ألا تعرفين إنه أسلم؟

- بل أنت من لا يعرف أنه يكذب

- يكذب؟

- أجل، وكان سيسلم كذبًا أيضًا،

" ثم تنظر إلي قائلة والدمع في عينيها":

- يا بُني لا يجدر بك أن تتغير لأجل أحد، عليك أن تبقى كما أنت، من يحبك لن يغيرك، قل لي وأمامهم الآن: هل طلبت يومًا من يارا أن تغير دينها لأجلك؟

- بالطبع لا يا امي

- فلم يجبرك هؤلاء على فعل هذا؟

تدخل إبراهيم غاضبًا وقال:

-نحن لم نجبره ولن نجبره على ذلك، جميعنا يعرف أنه كاذب وأردنا أن نرى لأي درجة من الكذب سيصل، لن يتزوج ابنتنا ما دام في أعمارنا يوم.

أجابته أمي:

-فابقوا ابنتكم عندكم، لسنا بحاجة إلى هكذا نسب!

قلت لها:

- أمي، ما بكِ، أنت تعلمين كل شيء.

- أنا لا أعلم شيء، سوى أنك ابني الوحيد، " وفتحت حقيبتها وتناولت منها جواز السفر" هذا هو مفتاح نجاتك، لن تحصل عليه ابدًا، إن ابني يريد أن يخدعكم ويأخذ ابنتكم ويسافر، لكن حتى هذا سأمنعه، وسأمزق أملك الوحيد يا بني أمام الجميع والآن.

.

مزقته فعلًا، شعرت أنها تمزق قلبها قبل أن تمزق هذا الجواز، كانت دمعتها تحاول البوح بكل شيء، لكن أمي أقوى من أن تبكي أمام الآخرين وتظهر ضعفها، لم يعد في اليد حيلة

أمسكت يدي بقوة، وكأنها وجدت ابنها الضائع منذ مدة، وقالت لي:

-هيا يا بُني ولترمي خلفك كل شيء هنا، وخرجنا دون أن نلقي أي نظرة.

***

غادر هادي ووالدته وسط ضجة عارمة، بعدما خرجا من البيت، تحولت كل النظرات الساخطة نحوي، قال أبي بغضب:

-هل أنت سعيدة الآن؟ أولًا تكذبين علينا ثم تحافظين على صمتك وكذبتك ونحن نطلب منه الشهادتين، بتنا وكأننا نجبره على ذلك جبرًا، وأصبح هو الضحية، ولو لم تأتي والدته وتكشف لنا ما تخططان له، لكنا قد وقعنا في خطأ عظيم و زوجناكما، وربما هربتما كما كنتما تخططان، فما رأيك؟

إبراهيم:

- أي رأي يا أبي، مثل هذه لا يؤخذ برأيها، من الغد سأتحدث مع سعيد وسيتزوجان قريبًا جدًا، ولن يسألها أحد عن رأيها بعد الآن.

والدي:

-وهل سيقبل سعيد بعد ما حصل قبل يومين، لقد سخرت منه أمام والدته، لا أحسبه يرضى بعد ذلك كله.

إبراهيم:

- لا تقلق يا أبي، لكن قبل ذلك كله، علينا أن نأخذ منها الهاتف ونمنعها من الذهاب إلى العمل، حتى تتم خطبتها من سعيد، فما رأيك؟
والدي: نعم الرأي يا بني، خذ منها الهاتف واغلقه، ولا تدعها تخرج من غرفتها إلا لرؤية سعيد، وستكون مسرورة بلقائه و إلا لن تحلم بالعودة للعمل ابدًا، هل هذا واضح؟

هكذا أخذ أخي مني الهاتف، وقرر والدي حبسي في غرفتي إلى أن تتم خطبتي من سعيد، أي وجعٍ بانتظاري في الأيام القادمة؟ وكيف سأطمئن على هادي بعد ما حصل، هل سيغفر لي اتصالي بأمه وإحضارها لإفساد كل شيء أم لا؟

لم أفكر وقتها سوى بإنقاذه بأقل الخسائر، المشكلة أن دنيا هي الوسيط الوحيد بيني وبينه الآن، لكنها في الوقت ذاته ابنة خالة سعيد، لذا لا أستطيع ائتمانها على أي سر بعد الآن، يجب أن أجد طريقة للحديث مع جهاد على الأقل.

إلى ذلك الحين سأصمت، وأقبل شاكرةً خطبتي لسعيد، سأحاول إقناعهم أني مستسلمة وقد هُزمت بعد كل ما حدث، المهم في كل هذا أن يبقى هادي على وعده ولا تتغير مشاعره، وإلا فأن نهايتي ستكون حتمًا بين يدي سعيد!

***

حينما دخلنا البيت، جلست أمي بكل الهدوء بالقرب من أبي تنفست الصعداء وقالت له بهدوء وثقة:

- ها قد جلبته لك، وأظن أني لحقت به في الوقت المناسب ، أليس كذلك يا هادي؟

- نعم يا أمي، في الوقت المناسب جدًا، تماما كما تفعل الأمهات، أنا أحبكِ جدًا، فلولا مجيئك في ذلك الوقت لما عرفت ماذا أفعل.

- لا تخف يا بني، إن لك أمًا تشعر بك دون أن تتحدث.

- ولكن حقًا كيف عرفتي بكل ذلك؟

- إنه قلب الأم

- حسنًا، يا أمي

- ماذا ستفعل مع يارا الآن؟

- لا أدري، كان موقفًا صعبًا وحادًا جدًا.

- هل وقفت إلى جانبك؟

- قليلًا، على قدر استطاعتها، لكنها عندما تفاقم الوضع طلبت مني أن أرحل، وأنا رفضت ذلك

- لماذا رفضت؟

- لم أرد أن أبدو جبانا.

- حقًا، وهل هذه النهاية أفضل، قلت لك من قبل الدين لا يحتمل اللعب، انسى أمرها تمامًا

- ولكن يا أمي

- لا شأن لي، أنا أقول رأيي، لو كنت مكانها لقمت على الفور وقلت إنه مسيحي ويكذب وأحبه هكذا، هل فعلت هذا؟

- لا لم تفعل، لكن أنا نفسي لم أجرؤ على فعل ذلك.

- وأنا تجرأت وفعلت، لأني أمك وأحبك أكثر من الجميع

- أجل يا أمي، لكنهم ليسوا عائلتك في النهاية

- إلى متى ستبقى تدافع عنها كالأبله!

- أبله! تصبحين على خير يا أمي.

لم أعد أستطيع التمييز بين الصحيح والخاطئ، هل أمي على حق؟

أكان يجب على يارا أن تقف في وجه أهلها وتقول ما قالته أمي؟

في النهاية هؤلاء عائلتها، وقد غادرنا وتركناها وحدها هناك، ماذا لو تدخلت لكانت الآن في أسوء الأحوال، على كل حال بالتأكيد لن تكون بخير الآن، المهم هو أن أعيد التفكير في موضوعنا من جديد، فكل المحاولات باءت بالفشل، وهدوء يارا ولا مبالاتها لم يعجباني ولم تتصل بي حتى الآن لتطمئن عن أحوالي، لكني سانتظر مكالمتها في الغد وأرى.

***

منذ البارحة لم أحادثه، ولم أدري ماذا حدث معه، سيأتي بعد ساعة من الآن سعيد وعائلته لخطبتي مجددًا، ما هذا السعيد ألا يمل؟ ألا يتعب؟ ألا يشعر؟

المهم أنى سأخرج بمظهر لائق أمامه للأسف ولن أعترض على أي شيء، سأوافق وأبتسم وأطلب تحديد الخطبة في أقرب وقت، كي أعود لعملي وأستعيد هاتفي وأتحدث مع هادي، قد اشتقت اليه كثيرًا.

جاء سعيد مبكرًا، خرجت أمامه بهدوء وثقة، صافحته وجلست بعيدًا، طلب مني أن أقترب" يا لبجاحته" وعندما اقتربت، سألني بصوت خفيض كصوت فأر

- هل حقا تقبلين الزواج بي؟

قلت بصوتٍ عالٍ دون أن ألتفت إليه: نعم أقبل بك فلا داعي لأن تخفض صوتك، تابع هامسًا وهادي؟ أجبته بحدة الصوت ذاتها:

-هادي صفحة تمزقت أمس أمام الجميع ولا أريد حتى ذكر اسمه.

ابتسم ابتسامة نصر وقال: على بركة الله يا عمي، متى تريد أن نحدد موعد الخطبة؟

تدخلت بسرعة، قائلة:

-بعد أسبوع

ضحك سعيد واستدار نحوي قائلًا:

- لم أكن أعلم إنك متعجلة لهذه الدرجة

قلت له وأنا أبتسم:

- لم لا، أريد تعويض كل ما فاتني.

ابتسم كالأبله وقال:

- فليكن، بعد إذنك يا عمي، الخميس القادم خطبتنا، فماذا تقول؟

قال أبي:

- إن هذا من دواعي سروري، فلنقرأ الفاتحة الآن.

وهكذا قرأت فاتحتي في غضون دقائق قليلة، اعتذرت منهم بلباقة ودخلت إلى غرفتي كي أنزع عني قناع الفرحة الكاذبة، ما لبثت أن جاءت أختي نور خلفي، لم أعلم ما الذي تريده؟ لماذا يصرون دومًا على الخوض في تفاصيل حياة المرء لهذه الدرجة؟

- ما بكِ يا نور؟ ألم يسر الأمر كما تريدون

- بلى، إن والدي سعيدُ جدا بذلك

- حمدًا لله، فما الأمر؟

- سعيد

- ما به؟

- يريد أن يغادر

- حسنًا، لم أفهم، ما المطلوب مني؟ ألا يعرف الطريق إلى الباب؟

- يريد رؤيتكِ

- رؤيتي أنا، لماذا؟

- ألستِ خطيبته؟

- أنا خطيبة سعيد؟

- ما رأيك؟

- حسنٌ، أنا قادمة.

ما الذي يريده مني هذا الكائن؟ قد استنفذت كل طاقتي دفعة واحدة، لن يعد بإمكاني الثبات من جديد أمامهم، لكني بهدوء سأخرج وأرى، أتمنى أن يكون هناك سببًا مقنعًا لمناداته لي.

- ناديتني؟

- أجل، سأذهب

- حسنًا، رافقتك السلامة.

- وهل طلبتكِ لتقولي لي رافقتك السلامة؟

- ظننت ذلك، ماذا تريد إذن؟

- في أي وقت تحبين أن أزوركِ غدًا؟

- ولماذا تزورني؟

- ألسنا خطيبين؟ أم أنك تفضلين الحدائق كما كنتِ مع الن...

- ماذا قلنا؟

- حسنًا، في أي ساعة؟ السابعة مساءًا، مناسب؟

- سننتظرك جميعًا.

- لا حاجة لذلك، يكفيني انتظارك

- إن واجبك أكبر مني وحدي

- حقًا، هل أنا كذلك؟

- أجل، رافقتك السلامة

- حسنا، وداعًا.

ذهب أخيرا وأغلقت الباب خلفه بكل ما أُتيت من قوة كي أتأكد أنه لن يعود مرة ثانية هذه الليلة، وذهبت إلى غرفتي وأطفأت جميع مصابيح البيت بالرغم من أن الساعة لم تزل الثامنة والنصف ورغم أن عائلتي جميعها تجلس في غرفة الضيوف، وذهبت للنوم دون أي تفكير بشيء.

***

لم تتصل طوال اليوم، وعندما حاولت الاتصال بها كان هاتفها مغلقًا، ما الذي جرى لها؟ يجب أن أعرف وإن كنت قد انزعجت منها، فهذا لا يعني أبدًاأني سأتخلى عنها، ماذا أفعل؟ كيف لي أن أعرف؟ هل أتصل بجهاد؟

فربما ذهبت للعمل اليوم مع إن هذا مستبعد، أنا أستغرب كيف لم يطردوها من العمل بعد كل تلك الغيابات!

المهم هو أن أطمئن على يارا الآن، فقد بدأت أشعر بالخوف عليها، كم أنا خجل من نفسي، كيف استطعت أن أفكر بها بهذه الطريقة أمس؟ لماذا لم أفكر بما سيفعله والدها بها بعد ما حصل أمس، يبدو أني شخص أناني، سأتصل فورًا بجهاد.

- ألو

- جهاد، كيف حالك؟

- بخير، لم تأتي.

- من هي التي لم تأتي؟

- أمي

- وما شأني بأمك؟

- هل تمزح، يارا لم تأتي للعمل اليوم

- حقًا، لماذا؟

- افترض بك أن تجيبني على هذا السؤال، هل فشلت في إقناعهم؟ أمس.

يبدو ذلك، ولو لم تأتي أمي في الوقت المناسب ، لكنت قد صليت معك صلاة الجمعة

- ههههه يا لك من أحمق!

- طيب، وما أخبارها؟

- ألا تعرف، اه نسيت أنهم أخذوا هاتفها

- هل أخذوه منها، لماذا؟

- أجل، في الواقع

- في الواقع ماذا؟ لماذا لا تتحدث مرة واحدة؟

- سعيد خطبها، وأظنهم قرأوا الفاتحة أيضًا.

- سعيد ألا يتعب من كونه الرجل الاحتياطي؟ و هل يارا قبلت؟

- وهل أمامها أي خيارات أخرى؟

- لا أدري ما أقول

- عليها التنازل كي تستطيع الحديث معك، أظنها تفكر بهذه الطريقة

- ألن تتوقف عن رمي نفسها في النار؟

- أنت النار بذاتها يا صديقي، ليتني لم أحضرك معي إلى تلك الحفلة

- بل هي الحسنة الوحيدة في حياتك

- حقًا؟

- أجل، أريد أن أتحدث معها، أرجوك

- لا تستطيع ذلك

- حاول، اسمع، اطلب من دنيا أن تذهب لزيارتها لتطمئن عنها، وعندما تصل هناك اتصل بها واطلب أن تتحدث أنت مع يارا، أرجوك.

- حسنًا، سأحدثها مساء اليوم

- في أي ساعة؟

- وما أدراني!

- أريد أن أكون بجانبك حين تحادثها

- الساعة السابعة، هل هذا الوقت مناسب لك؟

- جدًا، وداعًا

سأسمع صوتها مساء اليوم، لكن يجب أن أبحث عن جملة مشفرة تفهمها هي ولا يفهمها من حولها، كي تعلم أني بانتظارها، ماذا يا ترى؟ أي جملة؟ وجدتها، لكن هل ستفهمها؟ لن أخسر شيئًا على كل حال.

***

الساعة الآن السابعة مساءً، وها هو جرس الباب يُدق، بالتأكيد سعيد قد وصل، لا يتأخر أبدا، بالطبع، كنت جالسة في غرفتي عندما جاءني صوت أمي وهي تنادي:.

سعيد:

- يارا، تعالي بسرعة، قد وصل خطيبكِ

- خطيبي! سعيد! ها أنا قادمة.

- أهلًا سعيد، تفضل بالجلوس.

- كيف حالكِ اليوم يا عزيزتي.

قلت بامتعاض: عزيزتك! بخير.

- وأنا أيضًا بخير، اشتقت لكِ.

- تقابلنا أمس، أليس كذلك؟

- بلى، انظري ماذا أحضرت لكِ.

أخرج صندوقًا من الكيس الذي يحمله، وبدأ بفتحه في اللحظة ذاتها دخل والدي، وبدا وكأنه يترقب ما سيحدث، ثم قال لي سعيد:

- الشوكولاتة المفضلة لديكِ

كانت حقًا المفضلة لدي، وصدمني ذلك، وبما إن أبي يراقبنا، نظرت نحو سعيد وقلت له برقة

- لم أكن أعلم أنك تعرفني إلى هذه الدرجة، أظنني سأكون سعيدة معك طيلة العمر، شكرًا يا عزيزي.

ابتسم أبي و بدا الارتياح مرسومًا على وجهه، أما سعيد فقد كان يحاول أن يثبت لي أنه يعرفني حقًا، وبدأ بالحديث عني، ثم دُق الباب، ذهبت لأفتحه لكن سعيد أصَّر أن أبقى جالسة وسيتكفل هو بفتح الباب.

عندما فتح الباب وجد دنيا أمامه، تتحدث بالهاتف، دخلت وهي تقول:

-نعم يا جهاد أنا في منزلها الآن، ماذا تريد أن أسألها؟

قلت لها ما الأمر؟

قالت:

-انهم يبحثون عن ملف ضائع في مكتبك، ولا أدري ما فيه، خذ يا جهاد كلمها لو سمحت، أمسكت بالهاتف ويداي ترتجفان، قلت بصوت متقطع

- جهاد

- أجل جهاد، كيف حالك؟

- بخير حمدًا لله، وأنتِ؟

- أنا على خير ما يرام، خطبتي قريبًا، سأدعوك لا تخف

. - يسعدني هذا، أنا أحاول الاتصال بكِ، لكن هاتفكِ مقفل

اقتربت من سعيد وجلست بقربه، ووضعت يدي فوق كتفه، ووضعت الهاتف على أذنه، وقلت لجهاد:

- ماذا قلت؟ لم أسمع

- أقول لكِ، لقد حاولنا الاتصال بكِ كثيرًا، لكن هاتفكِ مقفل

- أجل، لقد سقط مني أمس وكُسر

ثم نظرت نحو سعيد وقلت برقة، محاولة لفت انتباهه وواصلت الحديث:

-لكن لا تقلقوا إن خطيبي سعيد سيحضر لي واحدًا في الغد، أليس كذلك يا عزيزي؟

- ا... خطيبك، نعم هذا جيد، المهم الملف الخاص بمكتب حجوزات الطيران لم نجده، أين هو؟

- أنه في بيتك، هل نسيت أنك أخذته معك للبيت لتدقيقه؟

- كيف نسيت شيئًا كهذا، شكرًا جزيلًا لكِ

- لا داعي للشكر، و ان احتجتم أي شيء اتصلوا بي غدًا وستجدونني، خذ هذه دنيا تريدك

نظرت إلى نفسي بعد أن أعدت الهاتف لدنيا، رأيت سعيد يجلس بالقرب مني، ويدي اليمنى على كتفه، وفي يده قطعة شوكولاتة يقدمها لي، لم تكن هذه هي المشكلة، بل المشكلة أن والديّ وأخي إبراهيم يحدقون بي ولا يصدقون ما يرون، فورًا قلت لسعيد أمامهم

- هل ستحضر لي في الغد هاتفًا جديدًا كما وعدتني قبل قليل؟

- بالتأكيد يا عزيزتي، سيكون في الغد أجمل الهواتف بين يديكِ

- شكرًا لك وأخذت منه قطعة الشوكولاتة وذهبت للمطبخ لأحضر القهوة.

لماذا هذا المجهود الكبير الذي أبذله؟ تعب عقلي وقلبي من كل هذا، لم أعد أحتمل، لا أصدق أني أفعل كل هذا، من أين لي كل تلك الطاقة والقدرة على التحمل؟!

لقد كان واضحًا من صوت جهاد وطريقة حديثه أن هادي بجانبه، ولكن لماذا سألني عن مكتب حجوزات الطيران؟ ألم يكن يقصد في هذا هادي؟ يا ترى هل فهم أني أتحدث عن الجوازات، وأطلب منه البدء بتحضير طلب الهجرة، لكن لماذا قلت خطيبي سعيد وعزيزي وسيحضر لي على مسامعهم؟ لا أود أبدًاتخيل وجه هادي في هذا الوقت.

***

- أي وجهٍ هذا الذي يغلي يا جهاد؟ أنت تعرف أن كل ما يهمني أن أطمئن عليها

-وهل اطمأنيت يا عزيزي؟

-لا تقل عزيزي هذه مرة أخرى

- لماذا؟ لقد أحببتها، سأقولها لدنيا كل يوم، يا عزيزتي.

- أنا لست دنيا، أم أنك لم تعد تدرك

- في الواقع أنت الذي لم يعد يدرك، تركت كل المحادثة وتشبثت بعزيزي!

- كانت تحادثه بدلع، أنا أدرك هذا من صوتها

- يا رجل، إن لم تفعل هذا، كيف ستقنعه بأن يحضر لها هاتفًا جديدًا

- لسنا بحاجة لهاتفه، مهلًا، ماذا قلت؟ إن لم تفعل هذا! ماذا فعلت؟

- هل طقَّ عقلك يا عزيزي

- أقسم أن لم تتوقف عن هذا الهراء سأغادر فورًا ولن تجدني

- اهدأ يا رجل، لا تسر خلف الأوهام، هي تبحث عن طريقة سريعة للتواصل، ثم هل سمعت ما قالت عن مكتب الطيران؟

- سمعت، ولم أفهم، هل هي غبية أم أنا؟

- أكاد أجزم إنك الغبي، لقد قالت إن الملف في منزلي.

- سمعتها، ماذا يعني؟

- ما الموجود في منزلي لكما؟

- ما هو؟

- ما بك يا رجل، جوازات السفر.

- هل تقصد أنها؟

- أجل

- ولماذا تطلب منك جواز سفرها، هل ستسافر معها؟

- يا لجنونك، إنها تقول هذا لك أنت، كي تبدأ بإجراءات الهجرة

- لا، أنت تمزح، فهمت كل هذا من كلمة في بيتك؟

- إنك متعب يا صديقي، أنا أقدر هذا

- هل تقدره فعلًا؟

- أجل، بالتأكيد

- فهل تصنع لي معروفًا؟

- إن كنت قادرًا فلن أتأخر

- اتصل بدنيا

- مجددًا

- هل تريد إقناعي بأنك لا تتصل بها مئة مرة في اليوم

- تسعة وتسعون فقط

- فهيا إذن، اطلب منها أن تعود لزيارة يارا، بالتأكيد ذهب ذلك العزيز

-أنت من قلتها.

- لا يهم، هيا اتصل.

- ولكن سنثير الشك هكذا.

- لا تخف، دعها تزرها و تطلب منها الدخول لغرفتها ثم تتصل بنا

- حاضر، سأفعل.

***

غادر سعيد أخيرًا، إن زيارته ثقيلة على قلبي جدًا، لكنه يبذل ما بوسعه، يحاول حقًا أن يرضيني، بدأت أشفق عليه، لماذاعليَّ أن أستغل طيبته لتحقيق حلمي؟ لأنه هو من وقف في طريق هذا الحلم؟ أعتقد ذلك.

من يدق باب غرفتي في هذا الوقت، سرت بخطى ثقيلة وفتحت الباب ودخلت دون أن أنظر من القادم..

قالت دنيا:

- ما بكِ يا عروس؟

- عروس! من؟

- أنت، لم أعتقد يومًا أنك ستنسجمين مع سعيد بهذه السرعة.

- هل رأيتِ؟ يبدو أنه ظريف.

- أجل، ستحبينه قريبًا، صدقيني.

- وأنا أظن هذا أيضًا.

- إن جهاد يود الحديث معكِ، أعلم أنه يزعجكِ في هذا، لكنها آخر مرة، سأطلبه ونحادثه

- حسنًا

ليتها تدرك كم أراحتني في طلبها هذا، فقد كنت أمدح سعيد وأحاول إيهامها بأنه شخص جيد فقط لأطلب منها الحديث مع جهاد دون أن تدرك أن في الأمر شيئا ما، بدأت هي الحديث معه:

- ألو، جهاد

- أهلًا يا عزيزتي

- لم تضحك؟

- لا شيء، هل وصلتي؟

- أجل، نحن الآن في غرفتها، ها هي خذها.

- أهلًا يا جهاد، أرى العودة سريعة.

- .نه الشوق يا صديقتي.

- حقًا، انك مثلي إذن.

- ربما أكثر

- لا أعتقد، فأنت لا تعلم كمية السعادة التي أعيشها هذه الأيام، هل وجدت الملف؟

- نعم وجدته بالتأكيد

- ورقتان أليس كذلك؟

- بلى

- فلا تتأخر في تقديمه

- لا تقلقي، كل شيء على ما يرام

- قد أعود في بداية الأسبوع القادم، سأرى ما يقرره سعيد

- كفى، أقصد كفاكِ غيابًا

في هذه الأثناء خرجت دنيا لتحضر لنا العصير من المطبخ، فقد نادتها أمي، يبدو أنهما سيتحدثان عني، قد تكون هذه المرة الأولى التي تقدم لي فيها خدمة كهذه، قلت لجهاد

- هل هو بجانبك؟

-من؟

- هادي، أعطني إياه بسرعة

- تفضلي

- هادي، حبيبي

- حبيبك؟ متأكدة؟

- لا تنزعج أرجوك، هذا كله لصالحنا، سنتحدث غدًا، فور وصول الهاتف الجديد

- الذي سيحضره عزيزكِ سعيد؟

- ماذا لو قلت له حبيبي؟ عزيزي تقال لأي شخص كجهاد مثلًا.

- اشتقت لجنونك.

- وأنا اشتقت لك كثيرًا، المهم أبدًابسرعة في اجراءات الهجرة.

- حاضر لا تقلقي.

- حسنًا يا جهاد يكفيك كلامًا، هل أقفل أم تريد دنيا، على كل حال اذهب الآن أريد أن نتحدث أنا وهي

- وداعًا حبيبتي.

- إلى اللقاء تقصد

-أجل يا مجنونة.

عدنا للحديث أنا ودنيا وحدنا، كانت السعادة بادية على وجهها والحزن والشوق يغطيان ملامح وجهي، قلت لها:

-دنيا هل تحبين جهاد؟

- تسألين وكأنك لا تعرفين.

- بالطبع أعرف، لكن ماذا لو اكتشفتِ أنه من دين أخر؟

- ما هذا الكلام؟

- أنه افتراض

- لا تفترضي شيئًا مستحيلًا

- كيف مستحيل؟ رأيتِ بعينك ما جرى معي

- لكنك ندمتِ وها أنت الآن تصححين خطأك

- لقد أقنعتني

- أي هاتفٍ تتوقعين سيحضره لكِ سعيد في الغد

– لا يهم، المهم أن يرسل ويستقبل، هذا كل ما أفكر به حاليًا

– لا أعتقد ذلك، أظنه سيختار هاتفًا يعبر عن حبه الكبير لكِ

– حبه الكبير؟

– وإلا بماذا تفسرين كل هذا الاهتمام بكِ؟ لماذا كلما طلبته عائلتكِ جاء فورًا لخطبتك؟ ولماذا يقبل أن يخطبكِ وهو يعرف أن في قلبكِ شخص آخر؟

– أرجوكِ أن تخبريني، أن هذه الأسئلة تدور في رأسي ألف مرة باليوم، لماذا؟

– لأنه يحبك

– أيُحب أحدًا الأخر بهذا القدر وإن لم يكن يبادله المشاعر ذاتها؟

– أظن هذا، إن سعيد أكبر مثالٍ أمامنا، يجب أن أذهب للنوم، وأنتِ أيضًا نامي، لا تنسي أننا سنذهب للسوق غدًا نشتري لكِ فستانًا.

– لم يخبرني أحدٌ بذلك

– اعتمدنا على سعيد، لكن يبدو أنه من شدة فرحه اليوم نسى إخبارك الساعة العاشرة صباحًا، سأخبر أمكِ كي تتجهز، تصبحين على خير.

– وأنتِ بألف خير.

***

–هل ارتاح رأسك أخيرًا، ها قد تحدثت معها، ماذا قالت لك؟

– لا شأن لك في ذلك.

– الآن لم يعد لي شأن، كم إنك ناكر للجميل.

– اسكت يا رجل، دعني أفكر.

- بالتأكيد أنت الآن تفكر في نوع الهاتف الذي قد يحضره سعيد ليارا غدًا.

- لماذا أجلس في بيتك أنا أصلًا؟

- لا أدري، ألن تعود للبيت؟

-لا أريد، أتمنى لو بإمكاني النوم من الآن على باب السفارة.

- أي سفارة يا حبيبي؟

- السفارة الكندية، ألا تعرف؟

- أعرف، لكن السفارة الكندية في تل أبيب.

- حقًا، وما ذلك المكتب الموجود في رام الله؟

- انه لتسيير الأعمال أعتقد، على كل حال اذهب غدًا صباحًا لرام الله، واطلب منهم تحديد موعدٍ لكما في السفارة الكندية، واسأل عن الأوراق المطلوبة و احضرها

- حاضر، أنك تُلقي الأوامرعليَّ كما لو كانت يارا أمامي

- هذا لأني أحبك يا عزيزي

- تبا لك، سأنصرف وداعًا

***

جاء سعيد في سيارته بصحبة والدته ودنيا لنذهب جميعًا لشراء فستان الخطوبة، توجهنا إلى سوق المدينة وبدأنا نبحث عن فستان مناسب حتى وجدنا ما يناسب ذوقي، كان فستان طويلًا بنفسجي اللون ياقته واسعة، ناعم الشكل، بسيط التصميم، قلت لهم:

- هذا هو الفستان الذي أبحث عنه، أريده.

قال سعيد: هل أعجبكِ.

- نعم، إنه يشبه ذوقي كثيرًا.

- لكنه لا يشبه ذوقي.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أني من سيدفع، ولن أدفع نقودًا لقاء شيء لا يعجبني.

- ماذا؟

- أجل

- وأنا التي سترتديه، ولن أرتدي شيئًا لا يعجبني.

قالت دنيا: لا داعي لهذا النقاش، فلنبحث عن فستان يعجبكما أنتما الاثنين

قلت: لا يبدو ذوقنا متشابهًا

قالت: بلى، هيا سنبحث عن آخر.

وبدأنا رحلة البحث من جديد، دخلنا ثلاث محلات ولم يعجب كلانا شيء، إلى أن وصلنا للمحل الرابع، التقط سعيد فستان أبيض مليء بحبات الخرز الكبيرة الملونة، اقترب مني وقال

- إن هذا الفستان يعجبني.

- أبيض؟

- أجل، وما باله الأبيض؟

- لا يناسبني اللون الأبيض، أنت ترى أن بشرتي بيضاء، وهذه الألوان ليست جميلة عليّ

- أنا أراها جميلة، ثم أنكِ إلى الآن لم تختاري فستانًا واحدًا جميلًا

- حقا؟

- هل سترتدين بخطبتنا، فستان أسود اللون؟

- إنه من أجمل الألوان ويناسبني جدًا، ثم أنني اخترت الكحلي والبنفسجي، وكلاهما لم يعجبك

- أنا أريد لونًا جميلًا، يعبر عن الفرح، لا عن الحزن

- ما علاقة الألوان بالمناسبات؟

قالت دنيا:

-حسنًا ما رأيكما بالخمري؟ إنه يجمع بين الألوان التي تحبها يارا وبين صيغة الفرح التي يبحث عنها يا سعيد.

قال سعيد:

-حسنًا.

وقلت أنا على مضض: لا بأس.

هكذا استطعنا أخيرًا الاتفاق على اللون، وعدنا لأحد الفساتين التي كانت قد أعجبتني، واشترينا منه اللون الخمري، ثم ذهبنا لتناول الغداء، كان مطعمًا متوسطًا، لا يعتبر مطعمًا سياحيًا ولا يعتبر مطعمًا شعبيًا، كانت أول مرة أدخله، وبصراحة لم أنتبه كثيرًا للطعام وجودته أو جمال المكان، كل ما شدني حينها قول سعيد، بأننا سنذهب بعد قليل لشراء محابس الخطبة

لم أكن قد فكرت من قبل، بموضوع المحبس هذا، حتى أن اسمه وحده كافٍ لجعلك تعيد التفكير في قراراتك واختيارك، محبس!

كان قدماء الفراعنة أول من اتبع تقليد تلبيس المحابس، فالعملات حينها كانت على شكل حلقات، وعندما يضع الرجل الحلقة في إصبع الفتاة فإن هذا يدل على أنه وضع نفسه وماله تحت تصرفها، أما وضع الخاتم أو المحبس في اليد اليمنى فهو يعود لكون اليد اليمنى هي يد الحلف، وكأن كلًا من الخطيبين يحلف يمينًا بأن يصون العهد، فهل سأصونه؟ ثم ينتقل المحبس عند الزواج لليد اليمنى في الإصبع الرابع المرتبط بشريان القلب، هكذا تقول الأسطورة.

لكن هل يفقه سعيد كل هذه الأمور عن الخطوبة وخاتمها؟ أكاد أجزم أنه يراهما، مصدر قوةٍ للرجل وتبعية للمرأة، كما كان سائدًا لدى الإغريق، في عادة قديمة لهم، حيث توضع يد الفتاة في يد الفتى ويضمهما قيد حديدي، عند خروجهما من بيت أبيها، ثم يركب هو جواده وهي سائرة خلفه ماشية مع هذا الرباط حتى يصلا إلى بيت الزوجية

هل يعتقد سعيد أنى سأكون تابعة له؟ لا لا أظن ذلك، هو يعلم تمامًا كيف أفكر، وكيف أن قضية المرأة بالنسبة لي موضوع لا يحتمل النقاش، لكن لماذا أدخل أنا في هكذا تفاصيل وكأني سأتزوج سعيد فعلًا؟

بدأ سعيد يختار خاتمًا للخطبة، طلب من الصائغ قائلًا: أريد محبسًا ذهبيًا للعروس و محبسًا فضيًا لي، قاطعته قائلة:

- ولم المحبس الفضي، ألا تملك ما يكفي لشراء محبسٍ ذهبيٍ لك؟

- أجابني وسط ذهول الجميع:

- هل نسيتِ ان الرجل المسلم لا يرتدي الذهب؟ يبدو أن عاداتك أصبحت قريبةً للنصرانية!

قالت امي:

-ما بكِ؟ ألا تعرفين أن الرجال يرتدون محابس فضة؟

في الحقيقة لم يغب الأمر عن ذهني نهائيًا، فأنا بالتأكيد أعرف هذا الأمر، لكني أردت أن أغيظه وأذكره بهادي في هذه اللحظة بالذات، كي ينزعج ولا يشاركني اختيار محبسي، ويبدو أنى قد نجحت في ذلك فعلًا، فما أن أخذ محبسه، حتى وضعه بقوة على الطاولة أمام البائع، وقال لي: هيا اختاري فقد بدأت أضجر.

لم أتعمد إطالة الوقت، فاخترت أول محبس أعجبني، كان محبس رقيقًا يتكون من خاتم دقيق في رأسه قطعة ذهب أبيض، كان بسيطًا وناعمًا و رقيقًا، و بسعرٍ مناسب، حملته وأعطيته للصائغ، قائلة:

– أريد هذا بعد إذنك

قال سعيد: أرني، هذا ما أعجبك؟

– أجل

– لكنه صغير جدًا، هل تريدين أن يقولوا أني بخيل؟

– ابدًا، لكن هذا يكفيني، قل لي متى سنشتري الهاتف الجديد؟

– سأحضره لكِ مساءً، لكن أريد أن أهديكِ الآن سوار ذهب، ما رأيك؟

– لا داعي لذلك.

– بلى، هيا، هذه مناسبة، أليس كذلك؟

. – كما تشاء

وعدنا أخيرًا إلى البيت، وعدني سعيد أن يعود مسًاءً حاملًا معه الهاتف الجديد، وها أنا في انتظاره، أتمنى ألَّا يتأخر، أريد أن اعرف ماذا فعل هادي اليوم.

***

فعلت كل شيء طُلب مني، زرت مكتب الممثلية الكندية في رام الله، وحددت موعد المقابلة بعد عشرة أيام، وجهزت كل الأوراق، ولم يبقَ سوى الفحص الطبي المطلوب مني ومن يارا، وكشف بنكي باسمها، وبهذا نكون قد بدأنا خطوتنا الأولى نحو الهجرة.

لكنها لم تتصل بي بعد، ولم تعد لعملها بالطبع، والمقابلة بعد عشرة أيام أي أنها يوم الثلاثاء القادم، على كل حال سأنتظر اتصالها الليلة أو ربما غدًا، لا أعرف كيف وضعها مع ذلك الكائن الآن.

لكني ما زلت لا أصدق كيف سمحت لعائلتها أن تتمادى معي بهذا الشكل، حتى لو تدخلت لن تكون عاقبتها أسوء من تزويجها لسعيد. وهل سأدعها تتزوجه؟ بالطبع لا، إنها حبيبتي أنا وإن كانت الآن معه، لماذا أفكر كثيرًا؟

إن لم تتصل بي حتى مساء الغد، سأتصرف أنا بطريقتي الخاصة، وسأذهب الآن إلى جهاد، أطلب منه و وزملائهما في العمل المساعدة، لكني أتمنى أن تحصل الليلة على الهاتف، لكي لا نضطر للمخاطرة مجددًا.

***

- ماذا تقصد بأنك لم تشتره؟

- كما سمعتِ، لم أشتره؟

- لماذا؟

- رأيتِ بنفسك، كم كان اليوم مليء بدفع النقود، لم يبقَ معي شيء، دفعت لقاء ذلك السوار الآخر ما كان لدي.

- لكني لم أطلب منك سوارًا.

- أجل، أنا من أحببت أن أهديه لكِ.

- لكني طلبت منك هاتفًا، حتى لو كان قديمًا ورخيصًا.

- أنت تستحقين أفضل منه.

- أنا أقبل به

- و أنا لا أقبل به ولا بسواه، هل ترين أني أحمق حتى أشتري لكِ هاتفًا تُكلمين به النصراني؟

- ماذا تقول؟ إن هذا الكلام يُسيء لك قبل أن يُسيء لي ولعائلتي

- لا تحاولي، فالموضوع محسوم، حتى والدكِ، لن يعيد لكِ الهاتف القديم

- وماذا لو أردت أن أحدثك أو أردت ان تحدثني؟

- سنتكلم من هاتف البيت، على كل حال لن يكلفنا كالهواتف النقالة

- أنت تمزح، أليس كذلك؟

- ابدًا، أنا لا أطيق المزاح

- ماذا عن العمل؟ أبي، قل أرجوك، هل ستحبسني بقية عمري هنا؟

- لا يا عزيزتي، سأرسلك للعمل طالما أنت في بيتي، وعندما تصبحين في بيت سعيد، سيكون هذا الأمر متعلق بكما.

- سأعود للعمل غدًا إذن.

قال سعيد:

-لن تعودي قبل الخطبة، وإلا لن تحلمي بالعمل بعد الزواج ابدًا

رددت متهكمة:

-أنا أريد العمل دومًا.

-كوني مطيعة إذن.

-حاضر، سأحاول ذلك.

ثم انصرف إلى بيته بعد نصف ساعة من هذا الحديث، لا أعتقد أنى سأستطيع تحمله طويلًا، فهو يقودني بهذه التصرفات نحو الجنون، ماذا لو كنت سأتزوجه حقًا، لكنت عشت في جحيم مستعر، حمدًا لله أن هذا لن يحصل.

لكن هادي الآن في انتظار مكالمة مني، لا أستطيع جعله ينتظر طويلًا، سأذهب لدنيا، بالتأكيد لن يجد جهاد اليوم عذرًا جديدًا ليطلبني، ولا بد أن هادي الآن ينتظرني في حيرة، أخبرت أمي أني ذاهبة لرؤية دنيا قليلًا وأني لن أتأخر أبدا، لكن أمي رفضت ذلك، وقالت أن كانت دنيا تريدني فستأتي بذاتها إلى هنا، لم أستمع لكلام أمي وسرت نحو الباب وفتحته وقد تهيأت للخروج، فإذا بأمي تُمسكني من الخلف وهي تقول لا تتأخري، خمس دقائق فقط، في هذه اللحظة ظهرت دنيا وهي تصعد الدرج متجهة نحونا، قالت:

- ما الأمر؟ هل أنتنَ متشاجرات؟

قالت أمي:

-أبدًايا ابنتي، ان يارا كانت تريد ان تراكِ، فقلت لها ألا تتأخر، تفضلي..
- لم استطع الانتظار حتى الصباح، جئت لأرى أي هاتفٍ أحضره لكِ سعيد، أن الفضول يقتلني.

- تفضلي، لنتحدث في غرفتي.

- لقد كان في منزلنا، أعطى أمي نقودًا كثيرة، وقال لها هذه هدية لكِ ولدنيا، لتشتريا ملابس لحفل الخطوبة.

- حقًا، هل فعل ذلك؟ انه رجل كريم.

- هيا، لا تضيعي الحديث و أرني الهاتف

- لم يحضر لي هاتفًا

- كيف؟ لماذا؟

- قال انه لا يملك ما يكفي لشرائه.

- لكني أقول لكِ قبل قليل، أعطى أمي الكثير من النقود، ألا يبدو هذا غريبًا!

- بلى، لكنه قال فيما بعد، أنه لن يشتري لي هاتفا ولن يسمح لوالدي بأن يعيد لي الهاتف، رغم أني لم أخبره أن هاتفي مع والدي!.

- حقًا؟

- أجل، قال أنه إن أحضر لي الهاتف فأستخدمه لأتصل بهادي، تخيلي!

- غبي.

- يبدو أن ابن خالتكِ لا يعرف من هي يارا، ولا يعرف أني لا أجبر على شيء، ولو أردت رفضه لفعلت ذلك كما كل مرة، ألن يفهم أن موضوع

هادي أُقفل، هل قلتِ له عما جرى عندما جاءت والدة هادي، وقالت ما قالت؟

- بلى، قلت له.

- ألا تعرفين أنني من اتصلت بوالدة هادي لكي تحضر كي لا يسلم هادي؟

. - أنت، لماذا؟ لو أنه أسلم لكنتما الآن متزوجان

- لم يعجبني موقفه، أردته أن يقف ويدافع عن نفسه ومعتقداته ودينه أمام الجميع، كما يفعل سعيد، لكنه خضع واستسلم، وأنا لا أحب الخائفين.

- يا لجرأتك وقوة شخصيتكِ، هل تعلمي أن سعيد سيفرح جدًا بهذا الكلام؟ لا أصدق نفسي، ظننتكِ تحبين هادي وتحاولين نسيانه مع سعيد..

- أبدًايا صديقتي، أنا لا أفعل شيئا كهذا، لذا أخبري سعيد بما أقوله لكِ

- بالطبع، يسعدني نقل أخبارٍ جميلة كهذه

- أريد أن اطلب منكِ طلبًا

- تفضلي

- كما قلت لكِ، أنا من اتصلت بأم هادي وطلبت منها الحضور، وأخاف أن يكون قد كرهني بعد هذا الموقف، أريد ان أعطي جهاد رسالة يوصلها لهادي، هل هذا ممكن؟

- ممم لا بأس، بعد كل ما قلتِ

- اتصلي به الآن إذن، وابقي معي.

- لا داعي لبقائي.

- أنا أريد ذلك.

- حسنًا

جاءت اللحظة المنتظرة وأخيرًا، كيف استطعت قول كل هذا الكلام؟ لا أصدق نفسي، المهم أنها تتحدث مع جهاد، قد جاء دوري أخيرا لأتكلم

- مرحبا جهاد

- أهلا يارا، كيف حالكِ؟

- بخير، وأنت؟

- جيد، أراكِ تتصلين من هاتف دنيا، يبدو أن هاتفكِ الجديد لم يصل بعد

- ولن يصل

- ماذا تقصدين؟

- لا يهم، أريدك أن توصل رسالة لهادي

***

-تريدين أن أوصل رسالة لهادي؟

أطربت أذني هذه الجملة كما لو أنني أسمع ما يحلو لي من الموشحات الأندلسية القديمة، حينما قالها جهاد وهو يحادث يارا، أحسست بالأمل يسري داخل عروقي، إنها وبالرغم من كل هذا البؤس الذي هي فيه تفكر بي وتطلب من جهاد أن يرسل لي رسالة، لكن ماذا تريد أن تُرسل لي؟

- تفضلي، أنا أسمعكِ

- في الواقع أنا أعرف أن علاقتنا قد أنتهت منذ أن خرج من بيتنا في صحبة والدته، بعد أن قالت ما قالت.

- لا تنزعجي منها أرجوكِ

- لا بأس، هذا كله الآن في الماضي، المهم أريدك أن تخبر هادي، أني فعلت ذلك لأجله.

- ماذا فعلتِ؟ هل تقصدين التخلي عنه؟

- لا، أقصد اتصالي بأمه، عندما وجدته في وضع حرج ولم أستطع أن أفعل شيئا له، ذهبت فورًا واتصلت بمنزله وردت أمه، وطلبت منها أن تأتي سريعًا وتلحق به.

- أنت فعلتِ هذا؟

- أجل، ألم يخبرك؟

- لا، يبدو أنه نسى ذلك

- هذا يعني أنه غير منزعج مني

- ولماذا ينزعج؟

- لأني أخبرت امه، وقد تسببت له بكل ما حدث من حرج

- لا، لا تقلقي، على العكس هو بالتأكيد شاكر لكِ هذا الحرص عليه

- حسنًا، الآن بإمكاني بدأ حياتي الجديدة، دون أي خوف.

- حياتك الجديدة؟

- أجل، حياتي التي تشبه الهجرة والانتقال من مكان لأخر مختلف تمامًا.

- أتمنى لكِ التوفيق.

- ولك أيضًا.

حأولت إعادة التركيز بما قالته يارا مجددًا لجهاد فقد كانت المكالمة سريعة جدًا ومختصرة وغير مفهومة على الأقل بالنسبة لي، فسألته قائلا:

- هي من اتصلت بأمي؟

- ألم تخبرك أمك بهذا؟

- لا، لم تخبرني، ليس هذا فحسب، بل تكلمت عنها بسوء أمام الجميع ولم تجبها، ثم عند عودتنا أكملت ما بدأت من ذلك الحديث السيء عنها

- ولم تسألها كيف عرفت بذلك؟

- قالت قلب الأم.

- قلب الأم؟ وصدقتها؟

- أجل، صدقتها أو كنت بحاجة لأصدقها.

- المهم، لم يحضر لها هاتفًا.

- لماذا؟

- وما أدراني، قد يحضره غدًا

-لا، قالت .نه لن يحضره نهائيًا، ألم تسمع

- هل تظن أني أركز في حديثها كثيرًا، إن صوتها من يشغل تركيزي عند الغياب

- لم أعرفك حنونًا هكذا

- ها قد عرفت، طبعًا هي تطلب مني متابعة أمور الهجرة، أليس كذلك؟

- بلى، بدأت تفهم أخيرًا

- إذن علينا تنفيذ خطتنا الأولى من الآن

- أي خطة؟

- جهاد؟ سأشتري لها هاتفًا صغيرًا ورقمًا، وأسجل على الهاتف رقمي ورقمك فقط، ونعطيها إياها غدًا.

لا تقل لي دنيا.

- وكيف سنعطيه لها؟

- بالطبع لا، سنختار أقرب زميلة لقلبها، من أكثر فتاة تحبها في العمل؟

- حنين

- أسم جميل، كل ما يتعلق بيارا يضج بالحنين والمحبة

- هيا يا شاعرنا، قل ماذا ستفعل حنين؟

- أنت ستطلب من حنين زيارة يارا لتبارك لها بالخطبة فحسب

- وماذا بعد ذلك؟ كيف ستعطيها الهاتف أمام الجميع؟

- لا تقلق، إن غدًا لناظره قريب.

ذهبنا بعدها أنا و جهاد لشراء هاتف جديد ليارا، كان الهاتف قديمًا يحوي أزرارًا وشاشة صغيرة وبدون كاميرا، مكتوب في مواصفاته أنه من أول الأجهزة التي استطاعت أن تجمع الاتصال والآلة الحاسبة والمذياع في جهاز واحد!

يبدو أن الثورة التكنولوجية وعصر السرعة استطاعا أن يسلبانا الإحساس بقيمة الأشياء، فمهما بلغت هواتفنا من ذكاء و ضمت ميزات جديدة، ستبقى في نظرنا هواتف ندفع مقابل اقتنائها ثمنًا باهظًا لتفقد قيمتها خلال عام، أصبحنا كائنات استهلاكية لا تفكر، بل تستهلك وتدفع فحسب، تمامًا كما هو مطلوب منها، فهاتف صغير كهذا بهذا السعر الزهيد يقوم بما يقوم به أي هاتف حديث إذا ما استثنينا الإنترنت وتوابعها.

أحضرته بنفسجيًا، فهي تحب هذا اللون كثيرًا، وسجلت رقمي باسم " نصفي الأخر"، وسجلت جهاد باسم " الطوارئ"، أريدها أن تضحك حين ترى هذا فحسب، نمت وأنا أحتضن الهاتف، أريد أن يأتي الغد بسرعة، من يصدق أن قطعة صغيرة كهذه، من شأنها أن تغير حياة إنسان!

في صباح اليوم التالي، وبعد أن فعَّلت رقمها، ذهبت للعمل وطلبت المغادرة في تمام الساعة الثانية، وتوجهت نحو وزارة السياحة، مكان عمل جهاد و يارا، اشتريت في طريقي باقة ورد زنبق أبيض كما تحب، طلبت من البائع وضع الهاتف داخل الورد بحيث لا يظهر، وطلبت منه بطاقتين، كتبت على الأولى " مبارك"، وعلى الثانية" افتحي الأزهار ان لكِ فيها مفاجأة"

واعطيت الباقة لجهاد وطلبت أن يعطيها لحنين وأن تقول ليارا إن داخل الباقة هدية مميزة، وتدخلها إلى غرفتها، وهذا ما حدث فعلًا.

***

دعا والديّ سعيد لتناول طعام الغداء ولإنهاء آخر التحضيرات لحفلة خطوبتنا بعد غد، كان سعيد يحب الأكل كثيرًا، رغم أن هذا الشيء لا ينعكس على مظهره، فهو شاب متوسط البنية، ليس رشيقًا كهادي بالطبع ولا بوسامته، لكنه كان متوسط الوزن طويل القامة، مما يجعله بالنسبة إلي غير منسجم من حجمي الصغير.

ذهبت لأفتح الباب بعد أن سمعت الجرس، لكنها مفاجأة غير متوقعة، زميلتي حنين جاءت لزياراتي وفي مثل هذا الوقت دون أن تتصل، حتى أنها تحمل في يدها باقة زهور، هذا أمر غير طبيعي بالتأكيد، رحبت بها و طلبت منها الدخول، قائلة:

-أهلًا حنين، تفضلي

- أهلًا يارا، قد اشتقنا لكِ

- أنا أكثر، دعيني أعرفكِ، أبي وأمي، تعرفينهما طبعًا

- بالطبع

- وهذا خطيبي... سعيد!

- تشرفت بمعرفتك

قال ويديه فوق الطبق وهو ينظر لحنين:

-وأنا أيضًا، وعاد لإكمال طبقه دون أن يجاملها بحرف.

قالت أمي:

-تفضلي يا بنتيوأجلسي معنا

اجابت حنين:

-لا داعي يا خالة، أنا فقط أردت أن أبارك ليارا على خطبتها وأحضرت لها هذه الباقة، معذرة لم أستطع الاتصال بكِ.

- لا بأس، إن هاتفي معطل، دعينا ندخل لغرفتي وليكملوا طعامهم.

- أجل، هيا بنا.

دخلنا الغرفة، وأغلقت الباب بالمفتاح دون أن أشعر و وجدت نفسي دون أن أشعر أيضًا، أقول لها:

- ما الذي اتى بكِ إلى هنا؟

- ألا تريدين أن أزورك؟

- لا أريدك أن تري هذا البلاء.

- لا بأس، أنا أقدر ظروفك، ولكِ عندي مفاجأة

- كم أحب المفاجآت، ماذا؟ هيا قولي

- باقة الورد

- وهل باقة الورد مفاجأة؟ رأيتها منذ دخولك

- يا لهذا الجحود، ألا تعجبكِ؟

- بلى، إنها جميلة، أنا أحب هذا النوع من الورد، إنك صاحبة ذوق جميل

- لكنها ليست مني

- ليست منكِ؟ ممن؟ لا تقولي أن هادي أرسلها لي

- بلى، هو من أرسلها

حملت الباقة وضممتها نحو صدري وشممتها ألف مرة، ثم قلت

- يا لحبيبي صاحب الذوق الرفيع

- منذ قليل كان ذوق جميلًا، أصبح الآن رفيعًا؟

- وما شأنك أنتِ؟

- لا شأن لي، ولا شأن لكِ بهذه البطاقة أيضًا.

- اي بطاقة، مكتوب هنا "مبارك" فقط.

- أنا لا أقصد هذه البطاقة، و أخرجت بطاقةً من جيبها وتابعت: بل أقصد هذه.

- ما هذه؟ أعطني لأرى.

- افتحي الأزهار أن لكِ فيها مفاجأة، مفاجأة أخرى لي!

- هيا، افتحيها، فأنا أيضًا لا أعرف ما بها.

بدأت بفتحها بهدوء، لكن شيء صلب موجود في نهاية الباقة من الأسفل، سحبته وأنا أقول

-ما هذا؟ هاتف، وأخيرا حمدًا لله.

- هل كل هذه الفرحة لهذا الهاتف القديم؟

- أجل أجل.

- لكن هاتفك السابق كان أحدث منه بكثير.

- أجل، لكن هذا الهاتف بنظري أغلى وأجمل هاتف بالعالم.

- أنا لا أفهم شيء.

- ليس من الضروري أن تفهمي، سيشرح لكِ علي كل شيء.

- انظري الشاحن لا زال داخل الباقة.

- أجل، يجب أن أخبائه جيدًا.

- لا بأس، يجب أن أذهب.

- لا، ابقي قليلًا، سيشكون بكِ إن لم تشربي عصيرًا.

- وهل العصير في بيتكم يزيل الشك؟

- ليته كان كذلك، للبثت أشربه حتى نهاية عمري.

- فعلًا إنكِ مجنونة.

- أجل مجنونة، لم أسمعها منذ زمن، أنا أحبك يا حنين، لقد أعدتِ الروح لحياتي

- بهذا الهاتف؟

- أجل أجل.

- يُسعدني هذا، لقد كان الأمر سهلًا.

- أليس كذلك؟ سأحضر لكِ العصير، بعد أن أخبئ الهاتف طبعًا.

- هيا إذن.

- ها أنا ذاهبة.

قالت بصوت مرتفع، بعد إن خرجت من الغرفة:

-لا تنسي إن تضعي ووردي في الماء.

- حاضر حاضر.

بعد ان رحلت حنين، جلست معهم والابتسامة لا تفارق وجهي، أدرك إن حنين لا تعلم ما أمر به بالتفصيل لهذا أدهشتها فرحتي، ألا يكفيني فرحًا إن هادي يفكر بي حتى وأنا بعيدة عنه، يدبر الأمور ويتحدى الظروف ليبقى معي ويحادثني؟ لا يحق لأحد بعد هذا كله أن يلومني على حب هادي.

قال أبي مستغربًا وقد لاحظ ما بي من فرح:

- كل هذه الابتسامة لأن زميلتكِ باركت لكِ؟

- أجل، يا ابي أنا أحبهم وأحب العودة للعمل.

قال سعيد:

-لو كنت أعلم أن عملك سيعيد لكِ الابتسامة لسمحت لكِ منذ اليوم الأول.

- حقًا؟

- أجل، فهل أعود غدًا إذن؟

. - كيف تعودين غدًا وخطبتنا بعد غد، بعد الخطوبة اذهبي، حتى إن كان يوم جمعة

قفزت من مكاني وقلت:

-شكرا لكم، أنا أحبكم جميعًا.

- ذُهل الجميع، وقالت أمي: اهدأي يا ابنتي، إن خطيبك سيغادر الآن.

- حسنًا يا أمي.

- نلتقي في الغد، وداعًا.

- وداعًا.

وذهبت فورًا إلى غرفتي، أغلقت الباب وأطفأت الضوء وطلبت من الجميع عدم إزعاجي لأنني بحاجة للنوم كي أظهر في الحفل بأجمل شكل وضعت الهاتف في الشاحن و بدأت بإضاعة الوقت حتى نام والدي، ثم فتحته أخيرًا، عند فتحه تظهر يدان تتصافحان مع كلمة مرحبًا، أظنهما يدأنا

بمجرد أن فُتح الهاتف، وصلتني رسالة، فتحتها بتلهف، كان مكتوب فيها " أهلا بك في شبكة جوال"! بعدها بدقائق قليلة وصلتني رسالة جديدة فتحتها، كانت الرسالة مُستلمة من " نصفي الآخر"، ما هذا الاسم الجميل، كُتب فيها " أنت الآن تتجولين داخل قلبي، هذا الهاتف لي وحدي مثلكِ تمامًا عندما تصلكِ الرسالة اتصلي بي كي أعلم، احبك"

***

كنت في غرفتي انتظر اتصالًا من يارا، أو أي إشارة منها لأتصل بها، فجأة أُضيء هاتفي، نظرت للشاشة " نصفي الأخر يتصل بك"، أغلقت الخط فورًا، وعاودت الاتصال بها:

- يارا، حبيبتي

- وأخيرًا يا هادي

- أجل وأخيرًا، كم اشتقت لهذا الصوت يا حبيبتي.

- بل أنا من اشتقت لصوتك، كيف حالك؟

- لست بخير، الشوق لكِ يقتلني.

- لا تقل هذا، أرجوك.

- أنت كيف حالكِ؟

- لا حال لي في غيابك، أنا أحيا بوجودك فقط.

- أين كانت هذه الكلمات خلال الفترة الماضية، لقد عشت حياةً خاوية في غيابكِ.

- لكنك كنت تخرج وتذهب للعمل وتزور جهاد وتستخدم هاتفك، هذه الأمور كلها لم أستطع فعلها.

- بقيتِ حبيسة البيت في تلك الأيام؟

- أجل، المرة الوحيدة التي خرجت فيها كانت مع أمي ودنيا وسعيد.

سعيد!

- أجل سعيد

- كيف تستطيعين فعل هذا بي؟ كيف تقبلين هذا؟

- لا خيار لي يا حبيبي، بعد ما حدث في تلك الليلة، وبعد أن اكتشف الجميع أنك تكذب، لم يكن هناك خيار.

- هل رأيت ما حدث؟ كانوا على وشك أن يرغموني

- ولماذا تقبلِ؟

- لأجلك

- لكني لم أطلب هذا، بالإضافة إني أعرف أنه بمجرد عودتك للبيت ستنسى كل ما حصل وتعود لدينك، فلماذا نلعب بالأديان إذن؟

- هل حقًا أنتِ من اتصل بأمي وأخبرها؟

- ألم تخبرك بذلك؟

- طبعًا أخبرتني، لكني أريد أن أسمع منكِ، أريد أن أسمع صوتكِ فتحدثي.

- عندما شعرت بأنهم بدأوا بالضغط عليك، وذهب أخي لإحضار الشيخ، لم أجد شيء أفعله، فاتصلت بمنزلكم، وأجابت أمك، فطلبت منها أن تلحق بك، وتحضر معها جواز السفر وتمزقه أمام الجميع.

- يعني أنتِ لم تنزعجي من كلامها؟

- ابدًا، لقد اتفقنا على شيء من هذا القبيل على الهاتف، ماذا قالت لك؟

- قالت إنها أحبتكِ جدًا بعد هذا الموقف، وسعيدة لأنكِ حريصة على احترام معتقداتي.

- حمدًا لله.

- أخبريني عنكِ.

- أخباري لن تسرك، لذا دعك منها.

- هل أعجبكِ الهاتف؟

- إنه رائع، أجمل هاتف أحصل عليه في حياتي.

- حقًا؟

- أجل، أحبه جدًا، لكن من هذا نصفي الآخر الموجود في قائمة الأسماء؟

- لا أدري ربما، قتيلك.

- أيهم، فهم كثر؟

- أظن أن أبا فراس الحمداني عندما كتب هذه القصيدة، وهذا البيت تحديدًا، تخيلكِ أنتِ

- كم كلامك جميل، أنا لا أريد من الحياة سواك.

- لا تقلقي، فالأمور تسير على ما يرام، لدينا موعد في السفارة بعد ثمانية ايام، استعدي.

- هل كل شيء جاهز؟

أجل، بقي الفحص الطبي الخاص بكِ وكشف بنكي.

- حسنًا، لكن متى سأفعل هذا؟

- بمجرد عودتك للعمل، متى ستعودين؟

- لا أدري، بعد الخطوبة بالتأكيد

- هل أنت سعيدة بهذه الخطبة؟ سيقيمون لكِ حفلةً خاصة تكونين أنتِ الملكة فيها.

- سعادتي بوجودك جانبي، فلا تتوانى عن ذلك.

بقينا نتحدث حتى ساعة متأخرة من الليل، وأنهينا حديثنا لكن قلوبنا لم تكتفي من بعضها البعض، أعلم أنها تكابر، وتحاول الظهور بمظهر القوية، وهي تنام كل ليلة وسط وابلٍ من الدموع، ودون أن يكترث بها أحدًا.

هل أخبرها عن ماري زميلتي الجديدة في العمل؟

رأيتها أولًا في الكنيسة يوم الأحد، حيث أصَّر والدي أن يأخذني ليعرفني بصديقته إلين وابنتها ماري، إنها حنطية البشرة بشعر بني خشن قصير، لها عينان عسليتان يزيدانها جمالًا

كانت تضيء كالشمعة في الصلاة، تضيء وتبهت وتدعو بكل خشوع، عند إنتهائنا من الصلاة عرفني أبي بها، صُدمت حين علمت أنها ابنة إلين، وصدمت أكثر في اليوم التالي عندما رأيتها تدخل الشركة وتجلس خلف أحد المكاتب! تقدمت نحوها وقلت: ألستِ ماري!

قالت: ألم تعرفني يا هادي، سررت بلقائك هنا.

- هل ستعملين معنا؟

- إن لم يزعجك هذا

- على العكس، أهلا بكِ، لا تترددي عن سؤالي إن احتجتِ شيء

- بالتأكيد، شكرًا لك

هذا كل ما في الأمر، فلا داعي لأن أخبرها وأزعجها وهي في هذا الحال، ثم أن موعد السفارة بعد ثمانية أيام، بالتأكيد سيكون لنا موعدُ آخر، وربما موعدين أو ثلاثة، وهذا كله ليس بصالحنا، فالأيام تمر سريعًا، إن كانت الخطبة بعد غد، فحتمًا سيكون الزفاف قريبًا جدًا، يجب أن ننهي كل شيء قبل الزفاف، لكن السفارات وطلب الهجرة فيها يستغرق وقتًا طويلًا جدًا، وهذا ليس بصالحنا، سأحاول تدبر أمري لكسب الوقت.

***

اليوم الخميس، ستقام حفلة خطوبتي على سعيد مساءً، لن تكون حفلة كبيرة، بل حفلة عائلية بالإضافة لبعض الأصدقاء، كانت رغبتنا كلانا، فهو يريد توفير المصاريف لحفل الزفاف، وأنا لا أريد أصلًا هذه الحفلة كلها، لكن ما باليد حيلة.

في بيتنا سيقام كل شيء، لدينا غرفة ضيوف واسعة مفتوحة على صالة واسعة، نضع فيها طاولة السفرة، لكننا وضعناها في مكان آخر اليوم، ليتسنى للضيوف الجلوس براحة.

أنا ودنيا وأختي نور في صالون التجميل الآن، ما زال أمامنا ساعتين حتى يحين موعد الخطبة، وقد أنهينا عملنا به، اتصلت بسعيد ليوصلنا إلى المنزل، قال إنه مشغول ولن يستطيع القدوم الآن وعلينا تدبر أنفسنا كأن نستقل سيارة أجرة، لا أفهم كي يحاول دومًا إقناعي بأنه يحبني ويغارعليَّ ويطلب مني وأنا في هذه الملابس وهذا الشكل أن أطلب سيارة أجرة، كم هو بليد!

اتصلت أختي نور بزوجها وأوصلنا للبيت، دخلنا جميعًا لغرفتي وبدأنا نضع اللمسات الأخيرة وبدأت الناس بالقدوم، سيصل سعيد بين لحظة والأخرى، لا أكاد أطيق رؤيته، بل أن قلبي ينقبض كلما اقترب الموعد أكثر، لا أتخيله يجلس بجانبي ويضع المحبس في يدي اليمنى، ثم يرقص معي أمام الجميع بكل ثقة، لا أستطيع تخيل هذا كله.

عندما دُق الباب ودخل أحدهم البيت، سمعت أصوات الزغاريد تعلو، ظننت أن سعيد قد وصل، فقالت دنيا لنور:

- دعينا نذهب ونرحب بسعيد، أظنه جاء

أجل، هيا بنا.

لكن سرعان ما عادت نور مضطربة وتحاول إخباري بشيء، اقتربت مني قائلة:

- أنت تعرفين أن اليوم خطبتك على سعيد.

- للأسف، أعرف.

- لكن هناك شيء لا تعرفينه.

- حقًا؟ ما هو؟

- أن سعيد

قلت ضاحكة:

-أرجوكِ لا تقولي إنه لم يعد يريدني.

- بل أنه يريدك كثيرًا، لهذا فعل ما فعل.

- ماذا فعل؟

- في الواقع إن والدي لم يكن يعلم بهذا، وقد علم به الآن.

- ما الأمر؟ أخفتني

- لقد جاء المأذون الشرعي، ليعقد قرانكما اليوم..

- اليوم؟

- أجل

- أنت تمزحين بالتأكيد، كيف يفعل هذا الشيء، ودون معرفة أبي، ما هذه الجرأة؟

- لا بأس، على كل حال كنتما ستعقدان القران قريبًا عند زفافكما.

– أنتِ قلتِ، عند زفافنا لا والآن و دون مقدمات، أنا لا أقبل، لماذا يفترض أنه يعجبني. وسأعيش معه العمر كله!

– أليس هذا الوضع الطبيعي؟

– لكن الخِطبة فترة تعارف، على أساسها يقرر الشريكان إن كانا سيستمران أم لا؟

– هذا ما حدث، فاستعدي.

يا إلهى ما هذه المصائب التي لا تنتهي، كلما ظننت أنى تخلصت من إحديها تأتيني الأخرى وتقسم ظهري، ماذا أفعل؟

هل أهرب؟ هل أرفض عقد القران هذا؟

أعتقد أن أفضل حل هو أن أتحدث مع أبي وسعيد قبل عقد القران، وأقول أن شرطي الوحيد هو تأجيله إلى حفل الزفاف وإلا سأقولها للمأذون الشرعي لا أقبل الزواج به، هذه أفضل طريقة.

دخل أحدهم فجأة إلى البيت، قال شيء غير مفهوم بالنسبة لي، ثم بدأت الأصوات تتعالى، كلمات مبهمة دون معانٍ، وأُناس يركضون في الخارج كأن زلزالا ما ضرب المكان، ضقت ذرعًا بما أنا فيه ففتحت باب غرفتي لأفهم ما يجري، وخلال ثوانٍ انقضت دنيا ونر عليّ.

وأعاداني إلى الداخل، قلت بغضب واضح:

– ما الأمر؟ ما الذي يجري؟

ردت دنيا:

– أن ابن خالتي سعيد.

قلت لها:

-ما به، ماذا فعل هذه المرة أيضًا؟

قالت:

- اصطدمت سيارته في شجرة قريبة

-ماذا؟ وهل جرى له شيء؟

-لا أدري، قاموا بإسعافه في الحال، ابقي أنت هنا، سأذهب وأرى بنفسي.
حسنًا، طمئنيني عنه لا تنسي ذلك.

ذهبت دنيا وذهب والدي وإخوتي ومعظم الرجال، لم يبقى في البيت سوى بضع نساء، جلست وسطهن أنتظر أي خبر، والجميع يحدق بي باستغراب، سمعت إحداهن تقول:

- لقد نحسته في هذا الزواج.

والأخرى تقول:

- إن أمه ليست راضية عن هذا الزواج منذ البداية، عليها أن تعيد التفكير

بينما كانت الأخيرة أكثرهن أدبًا، فقالت:

-يا لحظها المسكين، بعد أن نجحت أخيرًا في اصطياد عريس حدث ما حدث؟

لم أطق البقاء وسط هكذا أشخاص، لماذا يدرك الناس أن كلماتهم قد تكون أحد من السيف؟ وقد تغير كلمة واحدة حياة الإنسان بأكمله، هذا ما كان ينقصني، ألا يكفيني ما أنا فيه؟

***

- لماذا تقولين لي ما أنا فيه؟ هل أحببته؟

- إنك يا هادي تقول كلامًا لا معنى له.

- إن طريقة كلامك تدل على هذا.

- أنا فقط قلقة عليه، لو كان جارنا في تلك المركبة لقلقت عليه، فلماذا تلومني؟

- لأني أخشى أن تحبيه.

- أحبه؟ وهل أقدر على حب سواك في حياتي كلها؟ ليتني أقدر.

- أرأيتِ؟ إنكِ تتمنين ذلك.

- بل أني أؤكد لك، بأني لا أستطيع أن أحب سواك

- حسنا، قولي لي ماذا جرى له؟

- اتصلت بي دنيا وقالت إن وضعه مستقر، وعندما جاء أبي قال إن قدمه مكسورة وسيبقى بالجبس أربعين يومًا.

- ههههه أربعين يومًا، هكذا أكثر مما أريد.

- تريد؟

- أقصد أن هذه الفترة تكفينا لتجهز أوراقنا، بالمناسبة هل ستعودين للعمل؟

- لا أعلم، كان من المفترض أن أعود بعد الحفلة، وها قد تأجلت أربعين يومًا على الأقل، أخشى أن يدعوني في البيت حتى ذلك الوقت.

- لا أظن ذلك، حمدا لله أن هذه الخطبة لم تتم.

- هل تعلم أنه أحضر المأذون ليعقد قراننا اليوم؟

- ماذا؟ لم تخبريني من قبل عن شيء كهذا.

- لم أكن أعلم، حتى أبي لا يعلم شيئًا، يبدو أنه كان يريد أن يضعنا تحت الأمر الواقع.

- فوقع هو، هههههه لا أستطيع التخيل!

- هادي ما بك يا حبيبي؟ ألا تشعر أن هذه التصرفات تعبر عن قلة ال

- الإحساس؟

- لم أقل هذا.

لكنكِ كنتِ على وشك القول، اذهبي و زوري خطيبكِ في المشفى إذن، فأنا من عطل سيارته كي لا يقترب منكِ.

- ماذا؟ كيف تستطيع أن تفعل هذا به؟ لماذا تريد أن تؤذيه؟

- لأنه أذاني آلاف المرات.

- لكن الأذى لم يكن جسديًا.

- كاد يقتلني يا عزيزتي، أصدقيني القول، هل بدأت تحبينه؟

- كيف لي أن أحبه، أنه استغلالي وأناني وكاذب ومخادع أيضًا، لولا ما جرى اليوم، ربما كنت الآن قد تزوجته رغمًا عني.

- وهل تفعلينها؟

- بالطبع لا، حينما علمت أوشكت بإمساك الهاتف وأتصل بك لأطلب منك أن ترافقني ونهرب معًا.

- ليتكِ فعلتِ هذا.

- أكنت ستقبل؟

- وهل أرفض لكِ طلبًا؟ فلماذا لم تفعلي؟

- قررت أن أرفض وأن أعتبر فترة الخطبة فترة اختبار بيننا.

- وهل كانوا سيقبلون؟

- لا أعرف

- إذن لا تلومي حرصي عليكِ

. - أرى أنك أصبحت مجنونًا أكثر مني

- إن هذا كله من وحي حبك، نامي الآن و اذهبي غدًا لزيارته كي أتمكن من رؤيتك بعد غد

- أنت تطلب مني أن أزوره؟

- لو كان جارك من تعرض للحادث ألن تزورينه؟

لا. - لا أدري ربما

- فاعتبريه جارك، سأكون هناك أراكِ من بعيد، اشتقت لرؤيتكِ.

- الآن فهمت، حسنًا نلتقي غدًا إذن.

- أجل.

نعم أنا من عطل سيارته، كنت أعلم أنها لن تكون ضربة قوية، يكفيني أن تكسر قدمه، أربعين يومًا أتمنى أن يكفونا لإنهاء أمورنا إن هاتفي يرن لا بد أن يارا قد نسيت إخباري شيء ما،

لكنها ليست هي، الساعة الآن الواحدة ليلًا، فلماذا تتصل بي ماري في مثل هذا الوقت المتأخر؟

هل من الطبيعي أن تتصل في هكذا وقت؟ لست متأكدًا إن كان عليَّ أن أجيب، ها قد توقف الهاتف عن الرنين لا بأس، هكذا أفضل، صحيح أننا نمزح كثيرًا في العمل ونتشارك الطعام مع الجميع أحيانا، لكن هذا ليس سببًا كافيًا لتتصل بي، حتى وإن كانت تعجبني، فأنا أحب يارا جدًا.

عاودت الاتصال مرة أخرى، يجب أن أعرف ماذا تريد:

- ألو.

- ألو، هادي أرجوك ساعدني.

- أهلا ماري، ما الأمر؟

- أنا متأسفة اتصل بك في هذا الوقت، لكن أمي متعبة جدًا، ولا أعرف أحدًا يساعدنا في هذا الوقت.

- لا تقلقي، ما بها؟

- لا أعرف، يبدو أنها نوبة ربو، تكاد تلفظ أنفاسها.

- حسنًا سأحضر أمي وأبي في الحال

- أرجوك تخبرهما فيما بعد الوضع لا يحتمل.

- حسنًا، عشر دقائق وأكون عندكما.

خلال نصف ساعة تقريبًا كانت السيدة إلين في المشفى تتلقى العلاج، وماري تجلس على المقعد حانية ظهرها للأمام وتغطي وجهها بكلتا يديها وتسندهما بركبتيها، اتصلت فورًا بأمي وأبي فهما يلتقيان بها كل أحد تقريبًا، وأخبرتهما بما جرى.

اقتربت من ماري وقلت لها:

- لا تقلقي أنها نوبة ربو بسيطة ألم تقولي ذلك؟ لا تخافي.

رفعت يديها عن وجهها المليء بالدموع وقالت: لا أحد لي سواها يا هادي.

- لا تقولي هذا، أنا معكِ ويزعجني هذا الكلام.

وضعت يدها فوق يدي وضمتها كثيرًا، ثم قالت وهي تبتسم: شكرًا لك..

دخلا والديَّ في هذه اللحظة، ونظرت أمي اليّ نظرة المنتصر وقالت لماري.

- ما الأمر يا ابنتي؟

- لا نعلم يبدو أنها نوبة ربو لكنها شديدة جدًا.

- لا تقلقي ستكون على ما يرام، أليس كذلك يا هادي.

- نعم يا أمي، ستكون بخير.

- شكرًا جدًا لكما، وأنت يا عم جيروس أعذر تطفلي عليكم في هذا الوقت.

- لا تقولي هذا يا ابنتي، إن امك صديقة لي، كانت دومًا تعطيني وصفة فطيرة التفاح، لكنها لم تنجح معي ابدًا.

- أبي

- دعه يا هادي، أعدك أن أجعل أمي تصنعها خصيصا لكِ، وسنتشرف بضيافتكما في بيتنا

- أن هذا يسعدنا جدًا

***

لن أتأخر كثيرًا في زيارة سعيد، ساعة واحدة تكفي، عندما يعود الجميع لصلاة الجمعة سأعود معهم، سأدخل غرفته بكل قوة وأطمئن عليه حسبما

يدفعني الواجب، لكن المهم في كل هذا الموضوع أنى سأرى هادي، قد اشتقت لذلك المجنون كثيرًا، ارتديت لأجله الملابس التي يحب، يجب أن يراني جميلة بعد كل ذلك الوقت من الغياب، لكن كيف سأراه في المشفى؟

عند دخولي المشفى سرت بالأقسام بهدوء، وكنت أتَّلفت يمينًا ويسارًا أبحث عنه فقد أراه واقفًا في إحدى الزوايا ساندًا ظهره للحائط ويحمل كوبًا من القهوة في يده، هكذا أتخيله.

بعد دقائق من البحث وقبل غرفة سعيد، كان هناك ممر طويل في طرفه الأيمن مقاعد وغرف لقسم لم أنتبه له، كل ما جذبني حينها وجود هادي ووالديه مع فتاة لا أعرفها، وقد كان هادي يقف بجانبها ويربت على كتفها الأيمن بيده اليمنى، تلك اليد التي لطالما صافحتني وأهدتني وورد وربتت على كتفي أنا أيضًا

ماذا أفعل؟ هل أذهب إليه كالمجنونة كما يصفني وأسمع العالم صراخي، منذ زمن وأنا أبحث عن فرصة أفرغ فيها كل ما بداخلي من طاقة سلبية وموجات غضب، كنت قد كتمتها جميعًا وحملت نفسي فوق طاقتها وأنا أوعدها بالغد الأجمل، فأين هو غدي الأجمل؟ أنه ببساطة يحنو ويتعاطف مع فتاة لا أعرفها، ألم أكن أنا أولى بهذه العواطف السخية؟

والديّ معي وأخوتي وسعيد قريب مني كثيرًا، هل أفضح نفسي أمامهم وأكشف ما بقلبي أمام كل هؤلاء الناس الذين لا أعرفهم؟ ألم أحاول جاهدة إقناع الجميع بأني قد نسيت هادي وبدأت أقتنع بسعيد؟

وما به سعيد؟ أليس مسلمًا مثلي؟

يحبني كثيرًا ويبحث عن أي طريقة يسعدني بها؟ لماذا أتكبر عليه إذن؟ سأدخل غرفته الآن ووسط الجميع سأغرقه بالدلال وبعبرات الآسف لحاله، أليس خطيبي أمام الجميع؟

وهذا ما فعلته حقًا، عند دخولي الغرفة سرت مسرعة نحو سعيد، وطبعت قبلة على خده وجلست بقربه على طرف السرير، سألته إن كان يحتاج أن يشرب الماء، فقال: أجل، بعد إذنك

قدمت له الماء بهدوء وساعدته في شربه، لم يشرب إلا القليل.

قلت له:

-لا يبدو أنك عطش.

قال:

-في الحقيقة لست عطشانًا، لكني لست غبيًا لأضيع من يدي هكذا فرصة
قلت: أي فرصة؟

قال: أن أشرب الماء من يدك.

سُعد والديَّ كثيرًا بما قدمت لأجل سعيد، حتى هو يبدو أنه لم يكن متوقعًا شيئًا من هذا الدلال، حتى أنه قال لي:

- لو كنت أعلم أن الحادث سيجعلكِ لطيفة معي لكنت فعلتها منذ زمن وكررتها دومًا

- أتفعل هذا لأجلي؟ حقا؟

- ولم لا.

- كم أنا محظوظة.

اقتنع الجميع بأني أحب سعيد وأن الحادث و خوفي عليه قد أظهر كل مشاعري تجاهه، لكن كل هذا كان على حساب أعصابي و وجع قلبي، اعتذر والداي وإخوتي وانسحبوا لصلاة

الجمعة سألني أبي:

- ألن تعودي معنا للبيت؟

قال سعيد:

- أرجوك يا عمي دعها قليلًا.

قلت له:

-أجل يا أبي، سأبقى، حتى يجيء أحد اقربائه ويسليه، إن خالتي أم سعيد ستنام الآن على هذا السرير لترتاح قليلًا.

- كما تشائين يا ابنتي.

وخرج الجميع وبقينا أنا وسعيد وحدنا، ووالدته في السرير المجاور تحاول النوم، قلت له إني ذاهبة لإحضار كوب قهوة لي، وسألته إن كان يريد واحدًا، فأجاب أنه لا يريد.

أخيرًا خرجت وقد أغلقت باب الغرفة خلفي، وسرت متجهة نحو هادي الذي لم يلحظ وجودي بعد

***

- مرحبًا

أعرف هذا الصوت جيدًا، وأحفظه عن ظهر قلب، التفت فورًا نحوها والابتسامة تعلو ثغري وقلت:

- يارا، أخيرًا

- أخيرًا، ماذا؟

- رأيتكِ بعد كل هذا الغياب، كيف لك أن تزدادي جمالًا في هذا الوقت القصير؟

- حقًا؟

- أجل.

- وماذا تفعل هنا؟

- ألم أقل لكِ أني سأنتظرك هنا؟

- وهل أحضرت والداك لينتظرا معك؟

- ماذا تقصدين؟

- وتلك الفتاة، ماذا تفعل معكم؟

- إنها ماري زميلتي في العمل.

- ماري! و زميلتك في العمل؟

- أقصد أنها ابنة الخالة إلين صديقة والداي.

- و زميلتك في العمل واسمها ماري؟

- أجل؟

- ماذا تفعلون كلكم معها؟

- إن والدتها مريضة، واتصلت بأبي ليسعفها مساء أمس.

- بأبيك أم بك؟

- وما الفرق؟

- الفرق كبير يا حبيبي.

- بل أنتِ حبيبتي.

- هل أنا واقفة لأتغزل بك الآن؟

- ألم تقولي حبيبي.

- حبيبي هذه تختلف عن حبيبي تلك.

- وهل لكلمة حبيبي أكثر من معنى؟

- هذا ليس موضوعنا الآن.

- وما موضوعنا إذن؟

- لم أعرف أنك تجيد التعاطف والتضامن والتربيت على الكتف من قبل.

- ما قصدكِ؟

- رأيتك وأن تربت على كتفها وتواسيها قبل قليل

- أنا؟

- أجل، هل أكذب عيوني وأصدقك؟

- ليس هكذا، لكن الأمر حدث بعفوية.

- اه عفوية، سأريك العفوية كلها.

- ماذا تريني يا مجنونة؟ ثم لماذا أنتِ هنا الآن؟ ألم نتفق أن تبقي ساعة؟

- سأبقى حتى تذهب، وستبقى عيني تتابعانك، أعدك بذلك.

- أقسم أنكِ مجنونة

- سترى اليوم الجنون بعينيك، هذه غرفة سعيد.

- من بداخلها؟
- من بداخلها، سعيد طبعا.
- أفهم من معه؟
- أنا، ألا تراني؟
- وحدكما؟
- أجل
- أنتِ تمزحين، كيف قبل والدك بهذا؟
- وما شأنك؟
- أنا ما شأني؟ وحدكما حقا؟
- أمه في الداخل لكنها نائمة
- لا يا حبيبتي، ان هذا الوضع لا يروقني ابدًا، ستدعين الباب مفتوح.
- إنها مشفى وغرفة خاصة، لماذا أدعه مفتوح؟
- أنا من سيبقى عيني عليكِ، فافتحي الباب ولا تدفعيني للجنون
- حسنا، سأفتحه، لكي أراك جيدًا
- لا يهم، المهم أن يبقى مفتوحًا

ونحن نتحدث خرج أحد الأطباء من غرفة السيدة إلين وتوجه نحو أبي، قال له شيء ما، وبدأ يبكي، بكت أمي واحتضنت ماري، لم يكن أحدهم منتبهًا لوقوفي مع يارا، اقتربت مني ماري واحتضنتني وهي تبكي ثم قالت: لقد توفيت أمي.

وضعت يدي على ظهرها دون شعورٍ مني، فرمقتني يارا بنظرة تخيف الذئاب، ثم أمسكت يدا ماري وسحبتها نحوها واحتضنتها بقوة وهي تقول لها:

- حبيبتي توفيت أمكِ؟

- نعم، الآن أخبرنا الطبيب بذلك.

- فليرحمها الرب يا عزيزتي، هل تحتاجين أي مساعدة؟

- شكرًا للطفكِ، هادي ساعدني لو سمحت فأنا لا أعرف ماذا يجب أن أفعل؟

- أجل هادي رجاء ساعدها، إن احْتجْتماني ستجدانني في الغرفة المجاورة، أنظر لكما كل دقيقة

- كم أنت لطيفة، شكرًا

ما هذه الورطة الكبرى التي علقت رأسي بها، ماذا علي أن أفعل، وكان ما بي من مشاكل لا يكفيني، ذهبت يارا و ذهبت أنا وماري نحو والدي لنحدد ما يجب علينا فعله.

بعد أن ذهبا ماري وأبي لمراجعة الطبيب، نظرت نحو غرفة سعيد وجدت الباب مقفلًا، لم يحملني عقلي، ولم أجد طريقة لفتح باب الغرفة، فسعيد بالطبع يعرفني، حاولت جاهدًا إيجاد طريقة، فرأيت طفلًا صغيرًا يتجول في الممر، اقتربت منه وقلت له ما رأيك أن نلعب لعبة، وافق فورًا الطفل، فقلت له إن عليه طرق ذلك الباب و الهرب، وإن نجح ولم يمسك به أحد سيحصل على الحلوى.

طرق الفتى الباب واختبأ خلف سلة القمامة، يبدو إنه موقع استراتيجي ممتاز، فتحت يارا الباب ورأتني أقف مقابلها، اقتربت مني وقالت:

-هل أنت من يلعب معي؟

قلت لها:

-لا، بل ذلك الطفل الصغير.

اقترب مني الطفل.

وقال:

- لماذا أخبرتها أنت من أفشيت السر و ستحضر لي الحلوى، كم هو متعب اللعب مع الكبار.

نظرت نحوي بغرور فرح وقالت للطفل:

-هو من طلب منك أن تطرق الباب وتهرب؟

قال:

- نعم، وقال لي إن اختبأت ولم تريني سيعطيني الحلوى.

قالت:

-لا بأس يا صغيري، أنا من سيعطيك الحلوى؛ لأنك ولد ذكي.

قلت لها:

- بل أنا من سيعطيه، لقد وعدته بذلك، أليس كذلك؟

قال الطفل:

-لا تتشاجرا، سآخذ منكما الاثنين، وقال بصوت منخفض هل هما مجنونين؟

***

اليوم سيخرج سعيد من المشفى وأظنه يوم جنازة أم ماري، أنا لا أفهم كيف لم يحدثني هادي عنها، ولم يذكر أمامي إن له زميلة جديدة في العمل، وتعرف والديه ويعرف أمها، إنها أحداث كثيرة تثير الريبة والشك بداخلي.

رغم أنى لا أود الذهاب لإخراج سعيد من المشفى ولا أحبذ رؤيتي لهادي وماري معه، إلا أن السبب ذاته يدفعني للذهاب، فأنا لا أريد تركه وحيدًا معها، يجب أن يشعر بوجودي وباهتمامي، كي لا يفكر بغيري.

وصلنا المشفى في تمام الساعة العاشرة، كانوا يقفون في موكب مهيب، تبدو عليه علامات الحزن أمام المشفى. كانت سيارة هادي السيارة الثانية معه والديه وماري التي تقف محتمية بأمه، يا إلهي لا الفرح يسعدني ولا الحزن حتى يسعدني، إن كان فرح أو عزاء سيكون هذا كله على حسابي!

يبدو أن هادي لم ينتبه لي عند دخولي المشفى، لكنه أنتبه بعد ربع ساعة، عندما خرجت وأنا أمسك في سعيد الذي يغطي الجبس نصف قدمه اليمنى ويحاول جاهدًا المشي على القدم اليسرى والاتكاء عليّ، وأظن أن هذا هو ما لفت أنتباه هادي لنا، كان يحاول أن يقترب، لكن الجميع يعرفه، سار خطوتين للأمام ثم عاد للخلف بضجر

أكملت طريقي وكأني لم أرى شيئًا ولم أنتبه له، فتحت باب السيارة الخلفي وساعدت سعيد بالجلوس على المقعد، ثم فتحت الباب الأمامي لأجلس بجانب أبي، لكنه طلب مني العودة للخلف بجانب سعيد، كي تجلس والدته المتعبة في الأمام.

حدث كل هذا و هادي يراقبنا من بعيد، أكاد أتخيل ما حدث له عندما رآني أجلس بجانب سعيد

حينما قاد أبي السيارة، وخرج من المشفى، قال سعيد:

- أترى يا عم، بدل أن نُزف كعريسين، زففنا ككسير وممرضته.

ضحك أبي وقال:

- لا عليك يا بني، الأيام قادمة بإذن الله.

قلت له:

-لا بأس، كل شيء سيعوض، إلا عملي يا أبي، يجب أن أعود غدًا وإلا سأفصل نهائيًا.

قال أبي:

-ولماذا تقولين لي؟ إن خطيبكِ بجانبكِ فاسأليه

- سعيد، ما رأيك؟ ألم يحن الوقت للعودة للعمل؟

- بلى، قد حان الوقت لكل شيء.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن باستطاعتك العودة للعمل، وسأحضر لكِ هاتفًا جميلًا، ولن نعقد قراننا حتى تطلبي أنتِ ذلك، ما رأيك؟

- كل هذا دفعة واحدة؟

- أجل، أنت تستحقين كل ذلك، وقد عاملتك بسوء طيلة الفترة الماضية.

- و ما الذي تغير في يومين؟

- الكثير، رأيت لهفتك عليَّ وحرصك على سلامتي، وتأكدت تمامًا أن الماضي ذهب دون عودة.

- أنا لا أصدق ما أسمع، أبي هل سمعت؟

- أجل يا عزيزتي، جميعنا لاحظ هذا التغيير، ونحن سعداء لأجلك.

- شكرا لكم جميعًا، أعدتم لي الحياة، شكرًا شكرًا

***

-لا تشكريني يا ماري، انه واجبي، إن والدتك كانت صديقة للعائلة.

- وأنا؟

- أنت أيضًا صديقة للعائلة.

- لا أقصد هذا

- ماذا تقصدين إذن؟

- لم يكن لي في حياتي سوى أمي، كنا نعيش وحيدتين، هل سأعود للعيش وحدي؟

- لا بأس ستعتادين على ذلك، لكن إن شئتِ أرسلت معكِ أمي لتبقى معك بضعة أيام.

- أنا أتمنى هذا، لكني أخشى أن أزعجكم.

. - لا تقلقي، لن تزعجينا

ما أطول هذا اليوم وأخيرًا أنتهى، إن كل استعجالي لنهاية اليوم سببه فقط رغبتي في الحديث مع يارا، لم نتحدث منذ يومين، والمصيبة إنها كانت أمام ناظري تعتني بغيري، وأنا كالأبله أتفرج، كانت تسنده اليوم وجلست في

المقعد الخلفي بجانبه، ربما وضع يده فوق يدها، وقد يكون نظر إليها نظرات حب وشكر، بالتأكيد سيشكرها بعد كل هذا التعب الذي تعبته معه، لما كل هذا العذاب؟ حبيبتي أمام عيني ولا أستطيع الاقتراب منها، تعتني بغيري وأنا أراقب من بعيد كالدخيل، متى ستنتهي هذه المسرحية الهزلية، ونتزوج! لست أدري إن كان الوقت مناسبًا للاتصال بها أم لا، لكني لا أستطيع الصبر، سأحاول الاتصال:

- أهلا هادي

- هادي؟

- ألست هادي؟

- بل أنا ثائر

- لا أظن أنى أعرف ثائرين، ولماذا تثور؟

- لأني رأيت ما لا أطيق احتماله، دلال و اهتمام لم أحلم بهما في حياتي

- ومن تلك التي تجرؤ على أن تدللك في وجودي؟

- لست أنا من تَدلل، بل خطيب حبيبتي، خطيب حبيبتي! يا لقباحة هذه الكلمة، أترين يا سيدة يارا ماذا تفعلين بنا؟

- هل أنا من فعل هذا بنا؟ أليس غباؤك وإصرارك على الكذب أمام الجميع؟

- ألستِ أنت من ابتدأ بالكذب وقال إني أسلمت وسأخطبك؟

- بلى، لكنه عذر مني لأتخلص من سعيد.

- وها هو سعيدك الآن خطيب لكِ، يلقى الحب والدلال.

- وهل أنا من كسر قدمه، أم أنت؟

- وهل كسرتها لأن لدي هواية كسر الأقدام، أم لكي لا يخطبكِ رسميًا ويعقد قرانكما؟

- يا إلهي، إلى أي حالٍ وصلنا، لماذا نلقي اللوم على بعضنا البعض؟ أليست الأمور تسير كما خططنا لها؟

- بلى، لكنني لم استطع رؤيتكِ وأنت تسنديه وتوصليه للسيارة، وتجلسين بجانبه، أنت سندي أنا لا هو، هذا الدلال كله يجب أن يكون لي لا له.

- أعلم ذلك جيدًا، لكن ما باليد حيلة، ثم أن هذا الدلال قد أسفر عن نتائج رائعة.

- أي نتائج هذه؟

- ونحن في السيارة متجهان للبيت، قال إنه سيجعلني أعود للعمل في الغد، وسيحضر لي هاتفا كما وعدني، والأهم من كل ذلك أنه لن يعقد قراننا حتى أطلب منه أنا ذلك.

- كل هذا لأنه استند إليكِ حتى يصل للسيارة؟

- ولاهتمامي به بالمشفى.

- جيد، عمومًا لا أريد معرفة التفاصيل فقد اقتله، أنها أخبار سارة وسط كل هذا الحزن.

- بمناسبة الحزن، كيف ماري؟

- جيدة، لا بأس بها.

- هل سارت أمور الجنازة على ما يرام.

- نعم، حمدًا لله.

- جيد، ومن هي ماري هذه؟

- ألم أقل لكِ؟

- قلت، لكن لماذا لم تقل لي منذ البداية عنها؟ ولماذا لم تتصل بي وتخبرني إنك ذاهب للمشفى؟

- عرفتها في فترة انقطاعكِ عني، وموضوع المشفى حصل فجأة، ولم أستطع التفكير.

- وماذا عن التعاطف والتربيت على الكتف ثم تأتي وتحتضنك؟

- رأيتِ بعينيك كيف إنها من جاءت إلي، وقد سحبتها من بين يدي بخفة وبراعة وتعاملتِ معها بكل لطف ومعي بكل تهديد في ذات الوقت، أنتِ إنسانة ذكية.

- والتعاطف يا هادي، لا أحد في الدنيا يحتاج للتعاطف بقدري، منذ شهور وأنا أحاول أن أبقى قوية أمامك وأمام الجميع، أدَّعي الصلابة والتماسك وأنا من الداخل اتقطع، أشعر وكأن العمر يمر ببطء شديد، لن يمر حتى يعتصرني ويقتلني، تعبت من الكذب والتمثيل، تعبت منكم جميعًا، بت أراك حلمًا مستحيلًا، لا أستطيع الحصول عليه.

- اهدأي يا حبيبتي، أنتِ تعرفين جيدًا، أن مشاعري تجاهك مختلفة تمامًا عن سائر البشر، إن حبي لكِ لا يقاس ولا يقارن بأحد، إن كل ما تفعلينه يجعلكِ تكبرين في عيني أكثر وأكثر، أنتِ تضحين بكل شيء لأجلنا، لا تخافي أنت لي في النهاية.

- ليتني أراك.

- في الغد يا حبيبتي، سنتناول الطعام سويًا.

- هل جننت؟ لا يمكنني الذهاب معك إلى أي مطعم.

- ومن قال إننا سنذهب؟

- ماذا إذن؟

- إن ماري تخاف النوم وحدها، وذهبت أمي لتنام عندها بضعة أيام، وأبي هو من سيتولى أمر الغداء، هذه فرصتك لتحكمي على طعامه.

- إذن سأخبر الجميع أني سأخرج مع صديقاتي بعد العمل لنحتفل، أليس احتفالًا؟

- بلى، سنحتفل ونرقص ونغني، كما تشائين.

- كم أنت رائع.

- أنتِ الرائعة، هيا يا حبيبتي نامي وسأغني لكِ حتى أتأكد أنكِ نمتي.

- ماذا ستغني لي؟

- ماذا تريدين أن أغني؟

- يارا ال جدايلها شقر

- فيهن يتمرجح عمر، حاضر.

***

كان يوم عملٍ مميز، احتفل بي الزملاء وأحضروا لي فطورًا رائعًا، لا يعلمون أن في انتظاري غداء أروع، سيمر هادي لأخذي بعد قليل، لذا سأتمشى أنا وحنين بعيدًا عن العمل، حتى إن رآنا أحد ظن أني ذاهبة معها..

وصلنا في سيرنا إلى منتصف الطريق، ووصلت سيارة هادي الرائعة أخيرًا، نزل من السيارة وألقى التحية على حنين، ثم أمسكني من يدي وأوصلني للباب وفتحه لي، وقبل أن أضع قدمي في السيارة، التقط وردة حمراء رائعة الجمال، وقال لي:

- تفضلي يا غاليتي.

- شكرا لك، ما كل هذا الدلال؟

- لم ترِ شيئًا بعد.

- حقا؟

- أجل، هيا اصعدي.

- ودَّعنا حنين، شكرا لكِ

- العفو

تحدثنا ببعض الأحاديث العادية في السيارة، عن العمل والزملاء وكيف استقبلوني، وعندما وصلنا البيت وفتح الباب، وجدت مائدة طويلة بانتظاري، دهشت لرؤيتها، وقلت لوالد هادي:

- عم جيروس، هل أنت حضَّرت كل هذا؟

- أتعتقدين أنى لا أقدر؟

- بل أنت الذي يقدر، يدهشني إصرارك رغم ما سمعت عنك قاطعنا هادي قائلا:

- احم ما الذي سمعته عنه؟ أنك تهذين وستحرميننا أن نتذوق هذا الطعام الشهي.

قال والده: الآن صار شهيًا؟

- دعونا نجرب إن كان شهيًا أم لا؟

في الحقيقة كان مظهر الطعام جميلًا جدًا، لكن طعمه عكس ذلك تمامًا، لم يستطع أحدنا أكل لقمة ثانية، حتى إن العم جيروس قام وأحضر لنا جبنًا وبيض وبعض الخيار والشاي، قال له هادي:

- أهذا غداء أم عشاء يا أبي؟

- اسكت يا ولد أنه الاثنين معا.

- في الحقيقة يا عم، إن مظهره رائع وطعم العشاء رائع أيضًا.

- عدنا لهذا الحديث، أنتما لا تعرفان قيمة هذا الطعام، لو كانت برناديت هنا لرأيتم الاهتمام الحقيقي.

- لا تصدقيه، لحسن حظه أنها ليست هنا.

- لكني سأصدقه، فالزوجة تقدر زوجها، ثم ان الجهد الذي بذله أهم كثيرا من الطعم.

- الله هل تسمع يا ولد؟ ما هذا الكلام الجميل؟

- أسمع يا ابي، وهل قتلني سوى هذا الكلام الجميل؟

- أنتما تحرجاني هكذا كثيرا

- يارا، ما رأيك أن نرقص؟

- أجل موافقة، لكن بشرط سأرقص مع عمي جيروس.

- لكن أنا عريسك وحبيبك، ليس هو.

- إنه الأساس، عندما تكبر أتمنى أن تصبح مثل والدك، يعلو الشيب الوقور رأسك وتصبح خفيف ظل مثله.

- وهل أنا ثقيل الظل؟

- ابتعد يا ولد، ولا تغير من أبيك، هيا اختر لنا موسيقى جميلة للرقص

ورقصنا رقصة واحدة فحسب، ثم انسل هادي بخفة وأمسك يدي وراح يرقص رقصات لا علاقة لها بالموسيقى ويغني بأعلى صوت، ثم تحولت الموسيقى تدريجيًا لموسيقى بطيئة، وتحول معها هادي، وضع يديه الاثنتين أسفل ظهري، وأمسك يداي ووضعهما حول عنقه، وراح يرقص بهدوء وهو ينظر في عيني، لم أستطع النظر في عينيه، شعرت أن وجهي قد أحمر كثيرًا، كانت أول مرة في حياتي أخجل بها من هادي، صار يهمس بكلمات لم أستطع سماعها لشدة خجلي، حتى أمسك وجهي بيده وقال لي.

- لماذا لا تنظرين إلي؟ إنها أول مرة لا أرى عيونك تترقبني.

- وهل هذا ضروري؟

- أريد رؤية عيونك، هل تضحكان؟

- إنهما خجلتان

- هذه أول مرة أراكِ خجلة مني، لماذا؟

- إنها أول رقصة بطيئة في حياتي، لم أعتد أن يضمني أحدهم ويشعرني بهذا الحنان.

- هل حقًا تشعرين به؟

- المشاعر الصادقة يمكنك الإحساس بها دون أن تحتاج لأي كلمة.

- أنا أحبكِ يا يارا، وسأتزوجك قريبًا، وسنرقص هذه الرقصة مئات المرات.

- وأنا أحبك.

- لم أعتد عليكِ بهذا الهدوء والحنان

قاطعنا صوت العم جيروس، وهو يقول:

تراا، أنتهت الموسيقى، أم أنكما سترقصان هكذا للأبد؟

قال هادي وهو يمسك بيدي بشدة:

- ااااه يا أبي أتمنى هذا.

فقال لي العم:

-وأنتِ هل تتمنين هذا؟

قلت بخجل والاحمرار بادٍ على وجهي:

-كما يشاء هادي

ضحك هادي ضحكة عالية، من أعماق قلبه وهو يقول:

-هل سمعت يا أبي؟ كما يشاء هادي، هذه النمرة تقول كما يشاء هادي، تعلم يا عزيزي.

فقال والده:

-ماذا أتعلم، أنت من سرقتها مني، وإلا كنت أنا من راقصها هذه الرقصة.

التفت نحو هادي والفرح ينبعث من عينيه وهو لا يزال يمسك يدي وقال:

-كما يشاء هادي يا قلب هادي، و رفع يدي نحو فمه و طبع قبلة صغيرة عليها، كنا كطفلين صغيرين لا تسعهما الدنيا من الفرح.

ثم فُتِح باب بيت هادي، من القادم ويحمل مفتاحًا بالتأكيد والدته، لم أرها منذ أن جاءت لبيتنا ولم نتحدث، أود حقًا أن نتحدث.

***

دخلت أمي البيت وفوجئت عندما وجدت يارا في بيتنا ومائدة طويلة من الطعام الشهي أمامنا، نظرت نحونا، ثم التفتت نحو يارا قالت مرحبًا بها:

-أهلا يارا، هل كان يجب أن أخرج من البيت حتى تزورينا؟

قلت لها:

- إنها الظروف يا أمي، لقد عدتِ بسرعة.

- في الواقع إن ماري، أين ماري، تعالي يا ابنتي، إن ماري لم تستطع البقاء في البيت، ففي كل زاوية تتذكر أمها، لذا جلبتها لتقضي بضعة أيام في بيتنا، ما رأي عزيزتي يارا؟

- قلت لها:

- أهلًا بضيوفك يا أمي، تفضلي يا ماري.

ثم طلبت منها أن نتحدث جانبًا، فتصرفها بهذا الشكل يثير حيرتي وغضبي، فذهبنا إلى المطبخ وأغلقنا الباب خلفنا:

- لماذا أحضرتِ ماري معك؟

-في ذلك البيت.

- لقد قلت لك، لا تستطيع البقاء

- وأنا لا أستطيع البقاء في هذا البيت.

- منذ قليل كان البيت يعجبك، ما الذي جرى؟

- حسنًا، إن كنتِ تريدين مني معاملة ماري كما تحبين، عليكِ إذن أن تتعاملي مع يارا بأفضل طريقة، هل اتفقنا؟

- سأحاول، لا بأس بذلك، المهم أن تنتبهِ لماري.

- لماذا تفعلين هذا يا امي؟

-أنت تعرف جيدًا فلا تسأل.

- حسنًا يا أمي سنتحدث لاحقًا، لا تنسي يارا!

- ليتك أنت من تنساها

- ألم تكوني تحبينها؟

- كنت وعدلت عن ذلك، هيا اذهب من أمامي.

خرجنا بعد دقائق قليلة وجددنا الترحيب، رغم علمنا أن الجميع يدرك ما كنا نتحدث به، ثم اعتذرت يارا و طلبت أن تغادر فقد تأخر الوقت، لم تكترث أمي لأمرها كثيرًا، قالت لها فورًا:

- رافقتكِ السلامة، هل أطلب لكِ سيارة أجرة؟

قلت لها:

- أمي ما هذا المزاح، سيارة أجرة وأنا موجود؟

قالت:

- نسيت انك تعمل سائق أجرة في وقت الفراغ.

قلت:

- ما هذا المزاح يا أمي.

قالت يارا:

-لا داعي لذلك، سآخذ سيارة من الطريق.

قلت:

-هل جننتِ؟ بالطبع لن أسمح.

قالت:

-ابقَ مع ضيوفك يا هادي، وداعا.

وخرجت والدمع في عيونها يتسلل ببطء وهي تحاول مدارته، لحقت بها فورًا وأنا أدرك ما بها من خيبة بعد كل ذلك الفرح، وقلت:

- هل جننتِ؟ أتعتقدين أني أفوت لحظة واحدة قد تجمعنا؟ هل أسمح لغيري أن يوصلكِ؟ هيا اصعدي.

- لا داعي يا هادي.

- اصعدي وإلا فقدت أعصابي.

- حسنا، كما تشاء

قلت و أنا أفتح باب السيارة:

-إنكِ مطيعة اليوم على غير العادة.

- يبدو أنه الشوق يروضنا كما يشاء، لكني لن أجعله يتمكن مني مجددًا

- لماذا؟ لقد كانت أجمل رقصة أرقصها في حياتي، لم أرَكِ أبدًا هكذا

- ماذا تقصد بهكذا؟ ضعيفة؟

- أنت ضعيفة؟ أنت أقوى من الجبال يا حبيبتي، أنت جيشي الوحيد

- إذن؟

- خجولة وهادئة ومطيعة.

- و ما رأيك بما رأيت؟

- رأيي كما تشاء يارا.

- اه منك، وماذا عن ماري؟

- ما بها ماري؟

- لا تتظاهر بالغباء ستبقى في بيتكم و ستراها كثيرًا وستتمتع هي برؤيتك طوال اليوم.

. - أعدكِ إنها لن تستطيع أن تراني أكثر منكِ، سأخرج من الصباح ولا أعود حتى المساء

- وهل تقدر؟

-أجل، لا تنسى أن الغد عليكِ إجراء الفحص الطبي وإصدار كشف بنكي لنذهب بعد غد للسفارة.

- نسيت الأمر تماما.

- لكني لا أنسى، استعدي للغد

- الحياة معك مليئة بالأحداث والمفاجآت

- لأنكِ أنت حبيبتي، لو كانت سواكِ لكانت حياة مملة جدًا.

- أراك غدًا اذن، وداعًا

- بل إلى اللقاء

***

أحبه، أنه يفعل الكثير لأجلي، لكن أمه تتعامل بطريقة مريبة معي، لماذا وأنا التي ساعدتها؟ لم أحضرت ماري للبيت؟ هل تفكر حقًا في أن تزوجها

لهادي؟ أنا لا أقوى حتى على التفكير بهذا الشيء، أن الحياة تعاقبني كثيرًا ألا يكفي ما قدمته من تنازلات لأجل هذا الحب؟

لن أتصل بهادي ولا أظنه سيتصل، فكلانا متعب ويحتاج لراحة، و ربما لنوم عميق لا نستيقظ منه ابدًا، أخشى أن يصل بنا الحال إلى فعل هذا حقًا، ونتوج تضحياتنا الكثيرة هذه بالانتحار أو الموت حبًا، يا رب كن معنا، نحن عبادك الضعفاء لم تعد لنا طاقة على التحمل، يا رب!

في الصباح وقبل الذهاب إلى العمل، توجهت للمركز الطبي لإجراء الفحوصات اللازمة، ثم ذهبت للبنك الذي أتعامل معه و طلبت منه كشفًا بنكيًا، ثم ذهبت للعمل، كان هادي يريد مرافقتي لإنهاء هذه الأمور بسرعة خلال وقت عملي، لكني لم أحب أن يرانا أحد في أي مكان من الأماكن السابقة، لا أريد المجازفة ابدًا، قد ضاق قلبي وتعبت من الخوف.

قبل أن أذهب لعملي، مررت بطريقي لعمل هادي، فهي شركة حجز طيران، وأنا كموظفة في وزارة السياحة لن يبدو دخولي لهذا مكان مثيرًا للريبة أو الشكوك حتى.

أردت مفاجئة هادي دخلت دون ضجيج و سرت نحو مكتبه لم أجده في المكتب سألت أحد زملائه فقال لي أنه في غرفة المدير وسيأتي حالًا، فجلست أنتظره، بعد خمس دقائق ظهر هادي وبجانبه فتاة ترتدي الأسود، كانا يتحدثان حتى وصلا المكتب ولم ينتبه كلاهما لوجودي.

***

مكاتب الشركة تفصلها ألواح زجاجية، لذا كان بإمكان يارا أن ترانا من بعيد، وحيث أنا كنا نتحدث في العمل لم ننتبه لوجودها من بعد، فلم يخطر

ببال أحدنا أن ينظر للمكتب، حينها فتحت باب المكتب و ماري تسير خلفي، و كنت أقول لها:

- تعالي لنكمل الحديث في الداخل

جاء صوتها بغضب عاقل:

- هل تريدان أن أخرج لتكملا الحديث؟

- يارا، أنت هنا.

قالت وهي تنظر نحو ماري:أجل حبيبي، جئت لأراك.

- أهلا بكِ في أي وقت.

- متى عدتِ للعمل يا ماري؟

- اليوم.

- غريب، ألا تحصلون على إجازات طارئة؟

- بلى، لكن هادي أصَّر أن آتي للعمل.

- حقًا هادي، لماذا أزعجتها يا عمري؟

- في الحقيقة رأيتها جالسة في البيت حزينة، فقلت أن العمل سيحسن من مزاجها

- جيد، وهل تحسن مزاجكِ؟

- أجل، يكفي أنني لن أعاني من مشكلة المواصلات.

- فعلًا، نسيت أن هادي يعمل سائق أجرة في أوقات الفراغ!

قلت ممازحًا:

- يا لخفة ظلك يا عزيزتي.

- حسنٌ يا عزيزي، جئت لأذكرك بموعدنا، لدينا الكثير لننجزه.

. –صحيح، ثواني وسنذهب

بدأت أرتب بعض الأوراق في المكتب، وأعدت الملف لماري لتكمل إجراءاته، ثم فتحت باب المكتب وقلت:

-هيا بنا يا يارا، أجابت: هيا يا حبيبي، ثم نظرت نحو ماري بعد أن وضعت يدها في يدي وقالت: أعتذر منكِ، فلن تستطيعي الاستراحة من مشكلة المواصلات اليوم.

تبا لقوتها وجبروتها، أتراها تشعر بي فتأتي على حين غرة؟ إن النساء حين تغار لا تستطيع التفكير سوى بشيء واحد، وهو كيف تتخلص من غريمتها المتوقعة؟ والتي قد لا تكون منافسة لها أصلًا، لكن إحساس المرأة دوما أنها في حالة حرب دائمة هو ما يدفعها لتقديم عواطفها كاملة دون انقطاع و على مدى العمر، بعكسنا نحن الرجال الذين لا نستطيع إظهار عواطفنا أمام الآخرين، ما يجعلنا لا نقدر تضحيات شريكتنا ونعتبرها تطفلًا منها، ربما لنا الحق في ذلك فالحب بالنسبة لنا حالة مؤقتة تذهب وتعود وليس قضية حياة كالمرأة.

صعدنا إلى السيارة، ثم قلت لها:

-إلى أين تريدين أن أذهب أولًا؟

- إلى الحديقة.

- الحديقة؟

- أجل، أم أراك نسيتها؟

- بالطبع لم أنسها، لكن ألم تقولي أن لدينا أعمالنا كثيرة ننجزها؟

- أجل، وأولها هناك.

- حسنًا.

عندما وصلنا الحديقة وجلسنا على أحد المقاعد، نظرت إلي نظرات لوم يتسللها إحساس بالخيبة، ثم قالت:

- لماذا يا هادي؟ أتريد تعذيبي؟ وكأن ما بي لا يكفيني، ما بالك؟

- حبيبتي

- الآن أصبحت حبيبتك؟ وأمام ماري لم أكن سوى يارا يا هادي!

- الآن أصبحت هادي؟ أمام ماري كنت حبيبكِ وعمركِ.

- كنت أريد لها أن تفهم وتعرف مكانتي في قلبك، لكنك لم تقل سوى يارا!

- هل تتكلمين بجدية؟

- ليس هذا هو المهم، أمس وعدتني انك لن تراها وبأنك ستغيب عن المنزل من الصباح حتى المساء، لكنك نسيت إن تقول لي بأنها سترافقك طوال هذا الوقت، أنا لم أعد أصدقك يا هادي.

- اهدأي، أقسم أن الموضوع ليس كما تظنين.

- ألم تقنعها بمرافقتك للعمل؟

- لا، أقصد بلى ولكن.

- لا تبحث عن مبرر كاذب تصلح به خطأك.

- استيقظت صباحًا كعادتي، لم أشأ حتى أن أشاركهم الفطور كي لا نتحدث أنا وهي، ألقيت الصباح وخرجت، لكن أمي قالت لماري أمامي:

اذهبي للعمل مع هادي فهو يريد أن يساعدكِ على تحسين مزاجك.

- أمك قالت هذا؟ ما بها لتفعل هذا بي؟

- لا أدري.

- لكنك قبلت و اصطحبتها في سيارتك، متى ستعود لمنزلها؟

- ربما أسبوع.

- وهل سأبقى على أعصابي طيلة الأسبوع؟ لماذا يا هادي؟

- لن أبرر لنفسي هذه المرة، فأنت على حق.

- فماذا ستفعل لأجلي إذن؟

- ما تشائين.

- لو كان الخيار لي، فلا أريدك أن تراها، لكن هذا صعب ، ليس لها أقارب؟

- إن لها خالٌ واحد في رام الله.

- ولماذا لا تذهب للعيش معه؟

- وما أدراني.

- إذن، ستنتقل للعيش في بيت جهاد هذا الأسبوع حتى نرى للأمر حلًا

- أنا أعيش في منزل جهاد؟

- وما المانع؟ هو وامه وأبيه في البيت فقط، أنا أحادثه

- لكن!

- والله لن تبقى معها تحت سقف واحد إلا في العمل، و إلا تركتك معها للأبد ولن ترى وجهي ثانية.

- لم أرَكِ بهذه العصبية من قبل، لم يسبق لك أن فرضتِ رأيكِ عليَّ من قبل

- لذا يجب أن تتفهم مشاعري

حسنًا، دعينا الآن نذهب لننهي أمور السفارة، أنهيتها منذ الصباح

- ماذا تقصدين؟

- ذهبت للمركز وستظهر النتيجة الساعة الثانية وبالنسبة للكشف البنكي فهو معي الآن

- كيف؟ ولماذا؟

- لم أشأ أن يرانا أحد سويًا في المركز والمصرف، فذهبت وحدي.

- وجعلتني أخرج من العمل؟

- لم يكن في نيتي ذلك، لكن وجودك معها دفعني لهذا التصرف

- كنا نعمل

- لم يسبق لي وأن غرت من إحدى زميلاتك أو تحدثت عن إحداهن شيئًا، لكن هذه الفتاة مختلفة.

- لماذا؟ هل تعرفين شيء لا أعرفه؟

- إنه إحساس الأنثى.

- وهل سأتصرف بناء على مخاوفك؟

- الخيار لك يا هادي، إن شئت أذهب الآن ولن تضطر لتحمل مخاوفي أبدا

- قفي يا مجنونة، سأذهب للعيش مع جهاد، ما بيدي حيلة.

- قفزت كطفلة صغيرة وأنا أصيح، هيا لنذهب للعمل ونخبر جهاد، سيفرح جدًا بهذا

***

أسبوع من الحياة في منزل جهاد، لن يكون ذلك سيئًا، ستكون لنا حياة مليئة بالسهر والتجوال والأوقات الفارغة المملة أيضًا، لكن لن يكون أسوأ من البقاء في البيت مع أمي وماري على كل حال.

رحب جهاد طبعًا بالفكرة، وبقيت في مكتبهما حتى الساعة الثانية، هما خفيفا ظل والوقت معهما يمر سريعًا جدًا أو ربما لأني أحبهما أراهما كذلك، ذهبنا أخيرًا لإحضار الفحص الطبي،

ثم أوصلت يارا للبيت وطلبت مني أن أعود فورًا لمنزل جهاد، وعدتها بذلك.

لكن أليس من الضروري أن أعود للمنزل وأخبر أمي بغيابي أسبوع؟ سأحتاج أن آخذ ملابسي، وهذا ما فعلته فعلًا، عندما دخلت البيت وجدتهم ينتظرون قدومي للغداء، لم أستطع طبعًا تجاهل هذا الأمر، وأجلت الحديث إلى أن ينتهي الغداء، بعد ذلك صعدت لغرفتي وجهزت ملابس تكفيني وبعض ما يلزمني ووضعتهم في حقيبة، ثم ذهبت لأحدث أمي، كانت جالسة في غرفة المعيشة برفقة أبي وماري، طلبت أن نتحدث جانبًا، فذهبنا لغرفة الضيوف، لم نغلق الباب، فالموضوع برأيي بسيط وسريع، قلت لها:

- أمي، سأبقى في بيت جهاد بضعة أيام

- أنت تنام في بيت جهاد؟ ولماذا؟ ألا بيت لك؟

- بلى، لكني لا أشعر بحريتي هنا.

- حريتك، أم إن حبيبة قلبك هي من تمنعك؟

– ماذا تقصدين؟

– أقصد أن ماري أخبرتني بقدوم يارا وما فعلت اليوم، وكيف جعلتها تعود للبيت وحيدة.

– وهل نقلت ماري أخباري بالمذياع وسط المدينة أم بعد؟ ما شأنها وشأني؟

– لن تغادر يا هادي.

– لا يا أمي، لا تحاولي.

– ألهذا الحد وصلت بك الوقاحة، علمتك تلك المسلمة كيف تسيء لأمك؟

– إن هذا الكلام يسيء لي وليس لها يا أمي، ولا تحاولي أن تخيريني بينكما

– بل سأحاول، لأرى من ستختار؟

– سأختاركِ أنت طبعًا، لكني سأبقى طول العمر بجانبكِ بلا زواج، حتى أشيب و أموت وحيدًا بلا أسرة.

– لماذا تعذبني هكذا؟

– أنت من يعذبني و يدفعني للجنون يا أمي، إن بداخلي ما يكفي ليشعل بركان، أرجوكِ، أنا بحاجة لأن أبقى مع صديقي وأعيد التفكير بكل شيء.

– هل ستعيد التفكير؟

– أجل

– فاذهب إذن، ولا تنسى أمك، فليحمك الرب.

دخلت ماري فجأة وقالت:

- معذرة لم أكن أسترق السمع، لكن صوتكم كان عاليًا، لا تذهب يا هادي، البيت بيتك وأنا هنا ضيفة، سأجمع أشيائي وأرحل.

قلت لها:

-لستِ أنت السبب يا ماري، أنا بحاجة فعلًا لجلسة مع نفسي، ابقِ فأنت أحق مني بالبقاء.

في الحقيقة قد تكون أحق مني بالبقاء، فهي تبحث عن أم وأب و عائلة، وأنا أبحث عن استقرار و زواج وحب نبيل بعيدًا عن كل هذه المشاكل، ثم أنني حقًا بحاجة لهذه العزلة، قد تعيد أمي التفكير بالموضوع، وننجح أخيرًا، إن موعدنا غدًا في السفارة، ولن أدع شيء يعكر صفو هذه الفرحة، سأسهر مع جهاد حتى الصباح، لن أنام، كي لا يفوتنا الموعد.

***

كما قلت لهم في البداية، لن نتحدث حتى عودتي من العمل، وها قد عدت وانقضى موعد السفارة، و الآن شهرُ جديد أمامنا، يجب أن نجعلهم يعطونا التأشيرة في ذلك اليوم.

لكن هذا أمر مستحيل بالطبع، لذا سأطلب من هادي محادثة كميل من جديد ليساعدنا في هذا الأمر، أما الآن فسأخرج لجولة جديدة من هذه الحرب.

كان والديَّ في انتظاري، فقد مر خمسة أيامٍ على كسر قدم سعيد، وهذا ما يدفعني للاستغراب، فلم يحن الوقت بعد للبدء بتحضيرات حفلة الخطوبة، جلست مقابلهما وقلت:

– ما الأمر؟ لماذا كل هذه العجلة على تحديد موعد جديد لحفلة الخطوبة؟ ثم إن سعيد لا تزال قدمه في الجبس وتحتاج لخمسة وثلاثين يومًا إن كان يستطيع المشي عليها.

قال أبي:

–صحيح وقد يحتاج لعشرين يوم آخرين ليستطيع المشي بشكل جيد.

– إذن، لماذا تريدان من الآن تحديد موعد، على كل حال لا مانع عندي، فليختر سعيد اليوم المناسب له.

– قد حدد سعيد يومًا، قبل أن أقول لكِ أي يوم، سأسألك سؤالا

– تفضل يا أبي

– لاحظ الجميع اهتمامك بسعيد و شعورك بالراحة تجاهه في الآونة الأخيرة، فهل هذه مشاعرك حقا؟

– بالطبع يا أبي.

– إذن، أظن أن كلامي هذا سيسعدك، أن الحفلة ستكون بعد شهرين من الآن.

– جيد جدًا.

– لكن حفلة زفاف

– ماذا؟

– كما سمعتي، لذا أبدئي بالتحضير ولا تجادليني كثيرًا، فإنكِ تحبين الكلام والفلسفة، وأشعر أن نهايتي ستكون على يديكِ.

تلك الجملة الأخيرة أبكمتني، أخاف حقًا أن تكون نهاية والدي أو والدتي على يدي، بعد أن أهرب وأتركهما خلفي برفقة سعيد يلوم بعضهم بعضًا

ويلقي كل منهم التهم على الآخر، اه يا أبي، ليتك تعذرني وتفهمني، لكن يجب لهذا العالم أن يتغير وإن كان على حسابنا وحساب من نحب.

بعد شهرين سأزف عروسة لسعيد، وهادي لا يدري بشيء، يلاعب جهاد الورق في المساء ويعمل مع ماري في الصباح، وأنا لا أدري ماذا يجب أن أفعل، لكن حتمًا يجب أن يعرف وأخبره بذلك، الآن:

- مرحبًا هادي.

- أهلا يا يا يارا، اسمكِ صعب في النداء.

- فلتغيره إذن.

- لكني أحبه.

- ابحث له عن دلع أو اختصار.

- سيبقى الياء الحرف الأول على كل حال.

- إذن، ما الحل، هل تحب أن تناديني ماري؟

ضحك ضحكة زلزلت المكان بجانبه، وكان جهاد بجانبه يطلب منه أن يخفض الصوت.

قلت: ألهذه الدرجة أعجبك الاسم؟

- بل أن نكاتك ظريفة، يا مجنونة.

- فخذ نكتة جديدة إذن.

- أطربيني.

- بعد شهرين سنتزوج أنا وسعيد.

أجاب بضحكة يملأها الشك وقال:

- تتزوجون؟

- إن الجميع يرانا منسجمين، وهذه رغبة سعيد.

- ولماذا يراكم الجميع منسجمان؟

- يحكمون علينا من يوم واحد.

- يوم المشفى؟

- أجل، ليتك لم تأتِ، لما كنت فعلت ما فعلت.

- لا تلوميني، كنت أتوسل اليكِ ألا تفعلي ذلك وفعلتي.

- لو رأيت نفسك ماذا فعلت مع ماري لعرفت السبب.

- ما الحل الآن؟

- اتصل بكميل، و أطلب منه إن يتصل بنا في الغد، وستعرف

- أحب أفكارك، لنرى إذن.

***

في البداية رفضنا تدخله، ثم أزعجنا تطفله، بعد ذلك اقترب منا و طلب يدها للزواج مرة ومرتين وثلاث حتى حصل على ما يريد، لم يكفه ذلك بل تحكم بها و أراد أن يعلن خطبتهما وكاد أن يعقد قرانهما لولا تدخلي، والآن يريد أن يتزوجها، ما كل هذا التمادي؟ أيحسب نفسه سيحصل عليها؟ هي التي لم تنظر يومًا في عيونه، أكاد أجزم إن سألتها عن لون عينيه لن تعرف، فما باله يصر على إفساد حياتنا ويسمي نفسه سعيد.

كان بجانبي جهاد، يحاول التخفيف عني، قدم لي كوب الشاي وقال:

- إنها تحبك كثيرًا، ربما أكثر من حبك لها، هي لا تبوح لكن هذا واضح

عليها

- أعرف كم تحبني، لكن حبي لها يزداد يومًا بعد يوم، عندما ترفض الاستسلام و ترفض أن أكذب وألعب بالأديان، عندما تضحي بنفسها وبسعادتها و تحاول أن تظهر سعيدة أمام الجميع وفي ذات الوقت تحتفظ بحبها لي، وتبقى عينها مفتوحةعليَّ تمنعني حتى من التفكير بغيرها، إنها عشر نساء في امرأة واحدة.

- هل ستفرط بها إذن؟

- لا، بالطبع.

- إذن، اصدقني القول، لماذا أوصلت ماري لبيتكم اليوم؟ ولماذا تناولت الغداء هناك ولم تخبر يارا؟

- أنت تعلم إني أمس ذهبت للسفارة ولم أذهب للعمل، فكان لابد أن أُطمئن أمي كي لا تقلق، فماري بالتأكيد أخبرتها.

- كان بإمكانك الذهاب في أي وقت، فلماذا ذهبت بعد العمل؟ لتوصل ماري؟

- لا، أقصد لا أعرف، أنا لا أحب ماري، لا أقارنها بيارا أصلا، لكن ربما هو طبع لدى الرجال.

- وربما تحاول أن تلفت انتباهها، أو أن تنتقم منها لأنها تهتم بسعيد

- أبدًا، هي لا تهتم به أصلًا، هو من يحاول.

- وأنت تسمح لماري أن تحاول؟

- جهاد، احتفظ بأفكارك لنفسك، فوالله لو سمعت بها يارا لفجرت رأسك وحولته شظايا.

- وماذا عن رأسك؟

- لا شيء، لكنها ستقطع قلبي إربًا إربًا.

- فاحذر يا حبيبي.

- طيب.

لا أحب ماري كما يظنون، ربما أجد فيها الأخت الصغيرة أو كما قال جهاد محاولة لتعويض شعوري بالنقص، فليس من السهل عليَّ أن أقبل أن تغازل حبيبتي آخر، رغم يقيني أنها لن تغازله أبدًا.

لم يحدث شيء مهم على الغداء في منزل والديَّ، سوى اهتمام ماري المبالغ فيه بي، والذي جعلني أشعر بالندم وقد يكون هذا هو سبب إخفائي الأمر عن يارا.

***

لن أنتظره أنا من ستذهب اليه، أريد أن أراه في العمل وماري في المكتب المجاور له، سأذهب قبل الموعد بساعة، عليه أن يفكر كثيرًا قبل أن يفعل ما يزعجني، يجب أن يدرك أن الحياة أصعب كثيرا مما يتوقع، وإلا فلماذا سأخاطر بكل شيء وأذهب معه!

. كان في مكتبه وكانت ماري في مكتبها، لم يكن هناك شيء غريب إطلاقًا، رحب بي بكل حرارة، و أجلسني في مكتبه قدم لي القهوة و طلب مني أن أترجم له إحدى الصفحات التي لم يستطع ترجمتها أمس، لانشغاله بلعب الورق مع جهاد.

ما لبثنا أن أنهينا العمل وخرجنا سويًا، عند اقترابنا من باب الشركة متجهين للشارع، تقدمت ماري ووقفت بجانبنا، ثم قالت لهادي:

- ألن تذهب معي اليوم للبيت؟

- لا كما ترين أنا مشغول.

- يعني إنك لن تتناول معنا الطعام كما فعلنا أمس، ووضعت عيناها في الأرض وأكملت ليتك تأتي.

أتعجب حقًا لوقاحتها وإدعاءها البراءة في ذات الوقت، ولماذا يذهب هادي معها ويخفي عني الأمر؟ قلت لها:

- لا بأس، إن هادي اليوم مشغول كما ترين، ما رأيكِ أن نقتسمه بالنصف يوم لكِ ويوم لي؟

نظر هادي إلي بحقد وقال:

-ما هذا الهراء، هل ترياني قطعة حلوة؟

. قلت له:

-ربما، و تركته واقفًا معها وسرت وحدي في الطريق.

استمر بالحديث معها لدقائق، كان واضح أنه يحاول إنهاء الحديث وهي تعيده لإكماله، لكني لم أعد أكترث لهذه التفاصيل كلها، تبعني بسيارته أخيرًا، طلب مني الصعود فقلت أنني أفضل المشي لم يقتنع، وأنا أيضًا لم أركب، في النهاية قلت إني سوف أذهب للحديقة مشيًا على قدماي، وإني لا أريد أن يشاركني أحدًا المشي، أراد النزول والمشي بجانبي، وأنا لا ينقصني أن يرانا أحد، فاضطررت أخيرًا للصعود.

حينما وصلنا الحديقة حاول فتح موضوع ماري، كان يريد التبرير وينتظر مني التصديق والمسامحة كالعادة، لكنني منعته من قول أي شيء، قلت إنه لا رغبة لي بالحديث، لكنه حاول مجددًا أن يشرح الأمر، فقلت له:

– ليس لدي من الوقت ما يكفي فاتصل بكميل، أنا لا أريد أن أسمع قصص أطفال.

– قصص أطفال!

– هل أذهب؟

– دعيني اشرح لكِ.

– يكفي كذبًا، أما أن تتصل أو أن أذهب.

لم يجب بحرف واحد، أمسك هاتفه واتصل فعلًا بكميل، لم يكن لدي رغبة بالحديث فقلت له:

– أسفة يا كميل، أنا في مزاجٍ سيء ولا رغبة لي في الحديث اليوم، لكن أريدك أن تضمننا في السفارة وترسل لنا تأشيرة زيارة أو سياحة أي شيء.

– لماذا؟

– زفافي بعد شهرين، فإن كنت تود أنت ورفيقك الحضور فأهلًا بكما، و إلا فأرسل لنا تأشيرة

– حاضر، سأبدأ بالإجراءات من الغد، ما هذا يا هادي؟ إن خطيبتكِ لم تعد تلقي الأوامر عليك وحدك، بل علينا جميعًا!

– لا أحد غيرك يراني خطيبته.

– قال هادي محتدًا، وماذا عن جهاد؟

– قلت سأدعوه أيضًا لحفل زفافي، وداعًا الآن.

– إلى أين أنتِ ذاهبة؟ سأوصلك.

– لا أريد، أريد المشي فحسب.

- هل ستبكين تحت المطر؟

- وهل تراها تمطر؟

- ستمطر إن شئتِ.

- يا لبرودك.

- يارا حبيبتي، إن ماري فتاة ت...

- ان سعيد بانتظاري، سأزوره في بيته اليوم، ابق مع صديقك، وداعًا.

***

- ما الأمر يا هادي ما بها؟

- أنا أحمق! - كانت كالزهرة المتفتحة، أراها تذبل يومًا بعد يوم يا كميل

- من حماقتي

- فهمت من حماقتك، ماذا فعلت لها؟

- قلت إن فتاة في العمل معجبة بِي.

- بك أنت؟

- أجل، لكن المشكلة إن هذه الفتاة تقيم معي في منزلي.

- لم أفهم! تقيم معك في منزلك وتريدها أن تبقى عاقلة؟

- يا رجل، لقد جعلتني أترك البيت وأعيش كاللاجئين في بيت جهاد

- من التي جعلتك تترك منزلك، يارا؟

- أجل، جن جنونها حين رأتها في منزلي، في البداية تقبلت الأمر عندما أخذت وعدًا مني أني لن أراها طيلة اليوم، لكنها في اليوم التالي وجدتها في مكتبي وقد رافقتني بالسيارة.

- يا لجرأتك

- صدقني كانت محاولة من أمي للتقريب بيننا

- لكنك لم تمانع.

- المهم إن هذا ما حدث، وبعد أن أنتقلت لمنزل جهاد، علمت اليوم من ماري إني أوصلها للبيت وأتناول الطعام معهم.

- لكن لماذا تفعل أنت هذا؟

- لا أدري.

هل توقفت عن حبها؟ إن زفافها بعد شهرين، فإن كنت كذلك دعها لخطيبها وانسحب

- لا أبدًا أنا أحبها جدا.

- افهمك، نحن الرجال لا نستطيع تجاهل من تعجب بنا مهما حاولنا، هل تريد أن أرسل لكم تأشيرة زيارة أم أتجاهل الأمر؟

. - أرجوك أن ترسلها سريعًا، وتنقذنا من هذه الورطة

عدت إلى منزل جهاد وأنا أحاول الاتصال بيارا، أدرك أن ما فعلته يزعجها، أكذب عليها وأخفي عنها الحقيقة، هي تراهن عليَّ وأنا أريد أن أكون على قدر هذا الرهان، من أين جاءت لي ماري؟ هل لأجل فتاة غبية مثلها أخسر حب عمري؟ يارا؟

لم أرها يومًا حبيبة وحسب، إنها أمي وأختي وصديقتي ومديرتي و زميلتي وابنتي، هي كل الدنيا بالنسبة لي، تجتمع فيها الصفات المتضادة، حين تحتاج الذكاء والدهاء تراها أذكى النساء حين تحتاج للسذاجة تجدها بسذاجة محببة، الغرور والثقة، والتكبر والتواضع، القوة والضعف، إنها تركيبة

فريدة، يجب أن أضع حدًا لما تحاول ماري وأمي فعله، فخطتهما واضحة ومكشوفة، لذا سأذهب إليهما الآن وسأنهي هذه المهزلة.

حينما دخلت البيت، وجدت ماري تحمل حقيبتها و تودع أمي، اقتربت قائلًا:

- إلى أين يا ماري؟

- سأذهب.

- لماذا؟ هل أزعجكِ أحد؟

- لا.

- إذن، لماذا تذهبين؟ بقي للأسبوع يومين

- نعم؟

- أقصد أنك لم تكملي الأسبوع الذي قلتِ عنه

- إن خالي ينتظرني، سيصحبني معه إلى رام الله بضعة أيام

قلت فرحًا دون أن أنتبه:

- حقًا إلى رام الله هذا جيد.

- حقا؟

- أعني إنها مدينة جميلة، أنت بحاجة للنقاهة و رام الله تغسل القلوب ببهجتها

- أتمنى ذلك.

- وأنا أيضًا.

ودخلت البيت وأنا أتنهد كمن أزيل عن صدره جبالًا، لحقت بي أمي بعد قليل، وسمعتني وأنا أقول لجهاد في الهاتف، بأني لن أعود لمنزله اليوم، قد أمر في الغد لإحضار الحقيبة، فقالت لي:

- إذن وجودها السبب

- وكأنكِ لا تعرفين

- لماذا تحاولين فعل هذا بي؟

- أنا أراها مناسبة لك.

- وأنا لا أراها كذلك، أمي أنت تعلمين إني أحب يارا.

- لهذا توصل ماري كل يوم إلى البيت؟

- لا أوصلها حبا بها، بل لأنها تحرجني ولأنها تقيم في منزلنا ولأنك تُلحين عليَّ بذلك، لقد تعبت منكِ يا أمي.

- يا بني، أليست الفتاة التي تشاركك الدين ذاته أفضل لك من تلك المسلمة؟

- وما بها المسلمة؟ إن فيها من الأخلاق والأدب ما في غيرها وربما أكثر.

- فكر معي يا بني زوجتك المسلمة هل ستدع ابنك يحتفل بأعيادنا ويتعمد في الكنيسة ويزورها كل أحد؟ أم إنها ستعلمه دينها ومعتقداتها.

- لو كان لدي مشكلة مع دينها ومعتقداتها لما أحببتها، ثم إنها تحتفل معي في كل عيد، فلماذا ستمنع أبنائي من ذلك!

- أنت حر، لن أتدخل بعد الآن.

- هذا أفضل، ولا أريد لماري أن تعود إلى هذا البيت بعد الآن وإلا تركته لكِ ولها تتقاسمانه.

- وهل هو قطعة حلوى حتى نتقاسمه؟

- ما هذه البنت يا الله، هل قالت لكِ؟

- أجل، وأنا سعيدة إنها نجحت في إغاظتها.

- تصبحين على خير يا أمي.

***

إن هذه أول مرة أدخل فيها بيت سعيد كنت أتخيله بذوق أسوء من هذا، لكنه جيد، عند دخولي ألقيت نظرة عابرة عليه لكن أحاديثهم المملة جعلتني أتوغل في تفاصيل البيت للهرب منهم، ثم قالت والدة سعيد:

- هل أعجبك البيت؟

- جميل.

- أيناسبك؟

- لا أفهم

- هل يشبه ذوقك وتحبين العيش فيه؟

- أنا أعيش فيه؟

- أليس منزل خطيبك؟

- أه أجل

- لا تخافي سنصلحه ونغير فيه بعض اللمسات، ستحبينه.

- جيد.

قال أبي:

-إن يارا ليست من الفتيات اللواتي يهتممن بالقشور، أدهشني قول والدي مثل هذا الكلام، حقًا تعرف هذا عني؟ فلماذا جعلت هذا الرجل السطحي خطيب لي؟

قال سعيد:

-سنتزوج بعد شهرين من الآن يا يارا، إن اسمك صعب في المناداة

ضحكت باستخفاف وقلت: غيره إن أردت

قال:

-لكني أحبه

يخيل لي أني سمعت هذا الكلام من قبل!

أجبت دون اكتراث: على كل حال، لا أظن إننا نستطيع الزواج في شهرين، لنجعلها أربعة أشهر، ما رأيك؟

- لا أستطيع.

- ولماذا؟

- في الواقع وهي مفاجأة للجميع، لقد حصلت على عقد عمل في الإمارات.

- ماذا؟

- أجل، لكن لا تقلقوا سنزوركم دومًا.

- ألم تقولي دومًا بأنكِ تحبين السفر والانتقال للعيش في مكان آخر؟

سنعيش أنا وأنت وحدنا في بلاد لا يعرفنا فيها أحد فما رأيك؟

- فكرة رائعة!

هذا تمامًا ما كان ينقصني، العيش معه وحدنا في بلاد لا أعرف فيها سواه، أي جحيم ينتظرني معه؟ وكأني أهيم حبا به حتى يأخذني لبلاد هو فيها وحده، كلما ظننت إن الأمور ستحل ازدادت تعقيدًا أكثر فأكثر، أخشى أن لا أستطيع التحمل أكثر.

أفضل شيء في كسر قدم سعيد أنه لن يستطيع الجلوس بجانبي، ولا التطفل عليَّ والأهم من ذلك إنه لا يزورني، وفي الواقع هذا ما كان يخفف عني ما أنا فيه فلا حاجة لأن يثقل علي قلبي في زياراته المتعددة.

لم تطل زيارتنا كثيرًا، فأبي من الأشخاص الذين لا يحبون السهر، حمدا لله على ذلك، ودعنا سعيد و والدته و عدنا للبيت أخيرًا.

عندما ذهبت للنوم كان هاتفي يرن، إنه هادي يتصل للمرة الرابعة، فماذا يريد؟ هل شعر بخطئه؟ على كل حال سأغلق هاتفي وأنام، وسأطلب من العمل إجازة للغد، لم يعد يهمني شيء في هذه الدنيا، حتى وإن طردوني، لا بأس بذلك، قد يأتي يوم وأتزوج سعيد وأنا ممنونة له بهذا، سأبقى غدًا في المنزل، أنام وأنام كثيرًا، لن أفكر بأحد، ولن أكترث، أريد أن أسترخي وحسب.

إن الحياة لا تعطينا الكثير من الفرص، وحينما تقرر أن تعطينا إحداها فهي تستنزف طاقتنا كاملة و ترهقنا قبل أن نحصل عليها، نذرف ألف دمعة لنحصل على ابتسامة صغيرة، فإلى متى سنقاوم؟

***

إنها لا تجيب، وها قد أغلقت هاتفها، لما كل هذا الجحود؟

أدرك أن الأمور تزداد تعقيدا، وأني السبب وراء كل ما حدث، لكن ما بيدي حيلة.

***

اليوم أنا وحدي وهذا الشيء يسعدني جدًا، كنت أظنه يومًا مميزًا ومريحًا من كل النواحي، لكن سرعان ما علم سعيد بإجازتي هذه وقرر مكافئتي والتكرم عليَّ بزيارة منه إلى بيتنا ليقضي اليوم كاملًا معي، يا لسعادتي العارمة!

دخل البيت في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا، ساعده بعض الجيران للصعود إلى منزلنا في الطابق الرابع، لماذا يرهق نفسه كثيرًا كي يراني أنا بخير بدونه.

جلس على مقعدٍ في طرف غرفة الضيوف يكشف البيت كاملًا، ووضع قدمه على طاولة صغيرة جعلها أمامه، وراح يناديني كل دقيقة، وهو يقول لي: أريد ماء، ماذا ستعدون طعامًا لهذا اليوم؟ رجاء أكثروا من الثوم فأني أحبه، قللوا البصل فهو يسبب لي الحرقة، تمامًا كما لو كان متقاعدًا لا يجد ما يفعله!

انتظرنا أبي على الغداء، وهو يتصل به كل قليل يستعجله، طلب أبي أن لا ننتظره، لكن أنا وأمي لا نستطيع تناول الطعام إن لم يكن موجودًا، لذا رضخ سعيد وأنتظر معنا على مضض

بعد الغداء، استند إلى أبي وعاد لمكانه واضعًا قدمه في المكان ذاته، وراح يطلب الشاي و بعض الفواكه، قال إنه يحب أن يستلقي بعد الغداء، إن كان هذا لا يزعجنا.

في الواقع ليس لنا عادة النوم بعد الغداء، لكن أبي وافقه الرأي، وقال إننا جميعًا سننام، تركناه يحاول النوم و ذهب كل منَّا إلى غرفته، بقينا حبيسي الغرف ما يقارب الساعتين، لا أحب أن يجبرني أحد على شيء، لكني كنت سعيدة بنومه، فكما يقال "نوم الظالمين عبادة"

فور أن أستيقظ من النوم راح يناديني، وكأني زوجته من عشر سنوات، قال أريد بعض القهوة كي أستطيع التركيز والسهر معكم!

يا رباه متى سينتهي هذا اليوم المشئوم؟ أحضرت القهوة، وناديت والديَّ وجلسنا معه، ثم قال لي:

- هل تملكين جواز سفر؟

- لماذا تسأل؟

- أريدك أن تصدري واحدًا، كي أحصل لكِ على تأشيرة للإمارات.

- لكن، أليس من المفترض أن تذهب هناك أولًا ثم تبعث لي بالإقامة؟

- لا داعي لذلك، إن عقدنا القران أصبحتِ زوجتي، وبهذا يحق لي أن أصدرها لكِ

قال أبي يخاطبني: اذهبي منذ الغد، واصدري جواز السفر، وسنعقد قرانكما بعد شهر لكي يتمكن سعيد من إنهاء أموره.

مصيبة جديدة، إن العد التنازلي في هذا البيت أسرع من أي مكانٍ آخر، سيدفعونني للجنون حتمًا.

-أبي، لا تقلق، إن لدينا شهرين بعد عقد القران، لنجهز أنفسنا،

ثم ملت نحو سعيد وقلت:

- ألم تعدني أن يكون موعد القران من اختياري، إني أبحث عن تاريخ مميز لذلك اليوم، إن رفضت هذه المرة فلن أكلمك نهائيًا،وابتسمت له كالحمقاء

- لا بأس، كما تشائين.

- شكرًا لك يا عزيزي.

- العفو يا حبيبتي.

***

Top of Form

ما زال هاتفها مغلقًا، ولم تذهب للعمل اليوم، إن هذا العقاب جديد عليّ، يبدو إن خطئي كبير جدًا ولا يغتفر، يجب أن أعيد التفكير مجددًا، بكل شيء أسأت لها فيه..

كنت في المطبخ أحضر بعض القهوة لتريح أعصابي، فقد باتت مشدودة جدًا بغياب يارا، حينما تغيب أشعر وكأني طفل تائه لا مأوى له، يبحث عن أمه وسط الزحام ولا أحد يرثي لحاله، إنها وطني، فلماذا أفعل ما أفعل بها؟

سمعت جرس الباب، ذهب أبي ليرى من جاء إلينا، أيعقل أن تكون يارا، جاءت لتصالحني، كم أتمنى هذا، جاء صوت والدي يقول:

- أهلًا بكِ تفضلي، برناديت لدينا ضيفة..

قامت أمي واتجهت مسرعة نحو الباب، ثم قالت:

- ماري! أهلًا يا عزيزتي، تفضلي

يا ألهي، لماذا عادت مجددًا، ألم تذهب لخالها أمس في رام الله، هل انقضت عطلتها بسرعة، ثم لماذا لم تعد لبيتها؟ دخلت الغرفة ورحبت بها، جلست

مقابلها أنتظر أن تقول أي شيء لأفهم لماذا عادت بهذه السرعة؟ وإلى بيتنا تحديدًا؟

قالت بعد أن سألتها والدتي عن حالها، وساد الصمت المكان:

- أعتذر لتطفلي، أعرف أني مزعجة، لكن لا آمن على نفسي سوى في بيتكم.

واضح من هذه الجملة انها ستعود لتقيم في بيتنا، هل كانت من بقية أسرتنا ونسينا ذلك؟

قالت أمي:

-اهلا بكِ في أي وقت

وقال أبي:

-البيت بيتك، لا تقلقي لشيء

فقلت أنا بعد أن ضقت ذرعًا بكل هذه المجاملات: أمي لماذا لا تذهبين معها إلى منزلها؟ لا يصح أن يبقى البيت فارغ كل هذه المدة.

قالت ماري:

-لا عليك، قد أعود بعد يومين.

انسحبت إلى غرفتي بعد هذا الحديث الممل، يبدو أن يارا كانت على حق، فأنا حتى اللحظة كنت أعامل ماري على إنها أخت صغيرة لي، لكن يبدو أن أحساس الأنثى أقوى من أي شيء آخر، بعد قليل دخلت أمي غرفتي وجلست بجانبي على السرير وضعت يدها اليمنى فوق قدمي اليسرى وقالت:

- قد عرفتك منذ سنين رجل المهمات الكبرى.

- باختصار يا أمي، ماذا تريد؟

- عليك أن تتزوجها.

أجبت والضحكة الخائفة تعلو وجهي: هل جاءت لتخطبني؟ أفضل أن أتريث يا أمي قد تخطبني فتاة أفضل!

- لا تحول الموضوع إلى سخرية.

- بل إن ما تفعلانه هو السخرية بحد ذاتها، تريدان وضعي تحت الأمر الواقع، لماذا عادت؟

- إن خالها يريد تزويجها بابنه

- كم هذا جيد، أليس خالها تاجر ذهب؟ ماذا تريد أفضل من هذا؟

- هي لا تحبه، وتظن إنه يريد الزواج بها ليحصل على أملاكها، قد ورثت من أمها بيتًا ومحلًا تجاريًا وبعض النقود.

- وتريدين مني الزواج بها لأحصل أنا عليهم؟

- و لم لا؟ أنت أحق الناس بذلك، ألم تقف إلى جانبها حين مرضت أمها ونقلتها للمشفى، وساندتها عندما توفيت بتلك الجلطة؟

- هذا واجب ليس إلا، ما هذه البجاحة؟ تركت خالها وجاءت إلي لتخطبني؟ إن يارا على حق أقسم بذلك، سأعود لعلي وسأترك العمل أيضًا، لا تتصلي بي يا أمي إلا بعد أن ترحل.

- اهدأ يا بني، من أتاك بسيرة يارا تلك، أليست مخطوبة و تجهز لزفافها، انس أمرها يا بني وافتح صفحة جديدة بدونها.

قلت بصوت عالٍ بعد أن وصلت إلى باب المنزل: لن أعود إلى هذا البيت حتى تغادر، قولي لها هذا، وسأترك العمل لها أيضًا، فلتبحث عن غيري لخطبته.

اللعنة! ما الذي يجري معنا يا إلهي! لم كل هذا التعقيد وكل هذه التفاصيل المميتة، إن تلك الفتاة الساذجة تحاول أن تخدعني كما خدعت والديَّ، تحسبني أبله، لكني حتمًا لست كذلك أتظن إني أحبها؟! لمجرد أن أوصلتها مرتين؟ أم ظنت حقًا أن بيتنا مفتوح لها فقررت العيش فيه للأبد

إن ابن خالها هذا يليق بها جدًا، فلماذا تتكبر عليه؟ كم هن غريبات!

وصلت بيت جهاد من جديد، بأي عين سأدخل البيت الآن، اتصلت به وقلت انني أنتظره في السيارة، أتى بعد دقائق، وقال لي:

- اصعد يا رجل، لم أنت هنا؟

- أنا خجل منك يا جهاد.

قال ضاحكًا:

-لا تخاف إن حقيبتك على خير ما يرام، سأحضرها لك.

- في الواقع جئت للإقامة في بيتكم من جديد.

قال وهو يضحك:

- أراك كالنساء كثير الحرد.

- لا تمزح، فقلبي لم يعد يحتمل.

- كل هذا لأن يارا لا تجيب على الهاتف ولم تأتي للعمل؟

- ليس هذا فحسب، بل إن ماري عادت لبيتنا.

- بهذه السرعة! ولماذا بيتكم؟

- جاءت لخطبتي

- أنت تمزح بالطبع

- أبدًا يا صديقي، إن هذا ما جرى.

- لكن كيف؟

- يبدو أن ابن خالها طلب يدها للزواج، لكنها لا تريده.

- ومن تريد؟ أنت؟ إن معجباتك كثر يا لحظك!

- حظ! أي حظ هذا؟ سأجن يا رجل

- لا تقلق، سنجد حلًا للموضوع، هيا بنا للمنزل.

***

لم يغادر سعيد إلا بعد أن أثقل كاهلي بطلباته التي لا تنتهي وحديثه الثقيل على قلبي، كنت أريد أن أرتاح اليوم، فكان هذا اليوم أشد تعبًا مما سواه، هل أستحق هذا لقسوتي على هادي؟

لا أظن ذلك، فهو يحتاج إلى هذه القسوة كي يعيد حساباته، أعلم إنه لا يراها حبيبة له، لكن هي لن تدعه وشأنه، أنا أعرف هذا جيدًا، تعيش دور البراءة بإتقان وتجعله سائقا لها، وربما موظف تحت خدمته.

على كل حال سيبقى هاتفي مغلقًا، وسأعود غدًا للعمل، رغم أنني وددت البقاء في البيت، لكنني أخشى أن يعود سعيد لزيارتي مجددًا، يكفي أن أحتمل محادثته على الهاتف كل يوم، هل يريد أن يأتي كل يوم ليعكر صفو حياتي؟

في الصباح ذهبت للعمل، رأيت هادي يوصل جهاد بسيارته، يبدو إن ماري لم تذهب من بيتهم حتى الآن، يا لوقاحتها، دخلت إلى مكتبي دون أن أنظر إليهما، تبعني جهاد في الواقع توقعت أن يتبعه هادي بعد كل ما حدث لكنه لم يتبعه غاظني هذا التصرف كثيرًا فأنا أحترق لأجله وهو لا يكترث لأمري.

بقيت طيلة فترة الدوام أنتظر قدومه أو أن يحدثني عنه جهاد لكن دون جدوى وبالطبع أنا لم أسأله عن شيء، إلى أن حان موعد الأنصراف جاءت إلي حنين و طلبت مرافقتها إلى السوق لنشتري لها ثيابًا جديدة، في الواقع لم يكن لدي رغبة لذلك، لكنها أصرت جدًا، وقد شعرت بحاجة للخروج من هذه الكآبة.

دخلنا محلين لم يعجبها شيء داخلهما، في المحل الثالث قالت إنها متعبة، وتريد أن نجلس في أي مكان، كنا قريبين من الحديقة التي أذهب إليها أنا وهادي عادة، فاصطحبتها هناك حين وصلنا كان هادي جالسًا على مقعدنا، بانتظار أحدًا، أقترب منًّا فورًا، وقال:

- لقد تأخرتما.

- هل نحن على موعد معك؟ قلت له.

- أجل، كلفت حنين بهذه المهمة لأني أعرف أنكِ لن تأتي.

- جيد أنك تعرف، فلماذا تطلب لقائي؟

- كفي عن هذا اللؤم فهو ليس من طبعك، قد اشتقت لكِ و عرفت خطأي وندمت عليه، هل أصرخ وأنا أقول؟

قلت بفتور:

- لا داعي لذلك

صعد فوق المقعد، وقال: إني متأسف حقًا

نظر الجميع نحونا واحمرت وجنتي فورًا، فنظرت إليه و قلت حسنًا، سأسامحك هذه المرة، هيا انزل ألن تكررها ثانية؟

قالت حنين:

- لا يجرؤ على ذلك، الآن بعد أن صالحتكما عليَّ العودة للبيت لقد تأخرت.

- ألن نشتري ملابس لكِ؟

- لست بحاجة لملابس وداعًا

قال لي:

-كل من حولك خائنون أليس كذلك؟

- بل هم محبين.

تعرفين ذلك إذن.

- بالطبع

- أنا أسف يارا، أنتِ وطني و بدونك أبقى غريبُ في المطارات أبحث عن وطن

- لا بأس، أتمنى أن تتعظ.

- ما هذه الكلمات الكبيرة، تتعظ.

-ها!

- لا شيء، أبدًا.

- وكيف حالك؟

- ألم أقل لكِ.

- ماذا؟

- لقد خُطبت أمس؟

- أهذه مزحة؟

- أقسم على ذلك، إن ماري

- عدنا لسيرتها.

- أليست هي العروس

- عروس من؟

- عروسي التي خطبتني

- إن هذا هراء

- لكن هذا ما حدث بالفعل، قبل يومين وبعد شجارنا الآخير ذهبت لزيارة خالها في رام الله

- وأخيرًا، كم هذا جيد

- ليس كثيرًا، عادت أمس إلى بيتنا.

- بيتكم أنتم؟

- أجل، جاءت لخطبتي.

- حقًا؟

- أقسم لكِ، جاءت أمي إلى غرفتي وقالت إنه يجب عليَّ أن أتزوجها لأن ابن خالها خطبها.

- كم هذا جيد، فلتتزوجه.

- إنها تقول بإنه يطمع بما تملك.

- وما تملك؟

- منزلًا ومحلًا و بعض النقود.

- ليس الكثير.

- أعرف ذلك، ثم إن خالها تاجر ذهب، لا أظنه بحاجة لدكان صغير.

- وماذا بعد؟

- قالت أمي إنها لا تريده، وأنه يجدر بي أن أخطبها أنا، فهي ترى أني أحق من ابن خالها في هذه الأملاك الطائلة!

- جيد، سيكون لك بيت و دكان ورصيد بالبنك، أتوقع لك حياة زاهية في بيت زوجتك، وقد تشعر أنت بالاستقرار فتترك العمل وتتفرغ للمنزل، وتعمل هي لأجلك، ألم تعدك بهذا عندما خطبتك؟

- لم أفكر بهذا الكلام، لكنها فكرة رائعة، أتعرفين هذه أول مرة في حياتي أندم أني لست مسلمًا

- ولماذا؟

- كنت تزوجتكما معا، فالشرع يحل لي أربعة.

- لا تعرفون من الإسلام سوى هذه الجملة، مهما كان دينكم، لا تحفظون غيرها.

- أليس شيئا جميلًا؟

- الجميل هو أن أدعك لها للأبد.

قال بنبرة ساخرة: أرجوكِ لا تدعيني معها للأبد.

- يا لك من ساذج.

- أنا؟

- ماذا فعلت بعدها؟

- تركت البيت و عدت إلى بيت منقذي جهاد، وقد هددت بترك العمل

- وهل ستتركه حقا؟

- وكيف سأعيش وأصرف؟ أم تريدين أن أسحب نقود الهجرة من المصرف وأعيش بها؟ أخذت إجازة فحسب.

- تذكرت، أنا أيضًا أحمل لك أخبارًا

- لا تقولي شيئا، ان اخبارك اسوء من اخبار الأمة العربية هذه الأيام

- ربما يعجبك الخبر

- قولي، لنرى!

- ان سعيد

- ارأيتِ؟

- لم أقل شيئا

- يكفي أن تقولي أن سعيد، حتى أدرك مدى المصيبة القادمة.

- يريد أن أصدر جواز سفر ليتمكن من إصدار تأشيرة لي.

- هذا ما كان ينقصنا، ثم لماذا التأشيرة وجواز السفر، هل ستسافران لقضاء شهر العسل؟

ألم أقل لك بأنه قد حصل على عقد عمل في الإمارات ويريد أخذي معه؟

-أنتِ تذهبين معه؟

- أجل، هكذا يظن، لهذا طلب مني جواز سفر.

- هل تدركين ما تقولي؟

-للأسف، أدرك.

- لن تذهبي يارا، هل فهمتِ؟

- هل جننت؟ كيف أذهب وأنا سأتزوج بك؟

أنا أسف يا حبيبتي، ليت باستطاعتي فعل شيء ما. -

- لا بأس أنا أدرك ذلك، المهم إن أبي اقترح أن نعقد قراننا بعد شهر، ليستطيع سعيد إصدار الإقامة والتأشيرة بسهولة لي.

- ما هذا الأب الذي دومًا يقترح؟

قلت مزمجره:

-هادي.

- يستحيل أن تعقدي قرانك عليه، هذا يعني أنكما تزوجتما، ولا توجد قوة في الأرض تستطيع تزويجنا.

- أعلم ذلك

- إن أخبارك سيئة جدًا جدًا.

- لا تقلق، قد استطعت إقناعه بأن يبقى الموعد كما هو

- وهل قبل

- أجل، قال إن لدينا شهرين بعد الزفاف لتجهيز أمورنا.

- جيد، ولكن كيف اقنعته؟ كما تقنعيني؟

- وهل اقنعك؟

- يكفي أن تنظري إلي نظرة حب، حتى أفعل ما تريدين.

- تقصد نظرة تهديد؟ وضحكت.

- لا يا عزيزتي، أنا أنفذ طلباتك لأني أحبك وليس خوفًا منكِ

قلت والابتسامة على وجهي:

- أدرك ذلك.

- المهم، ماذا سأفعل مع ماري؟

- قلت لك إنها معجبة بك ولم تصدقني

- إن لك من الإحساس والفراسة ما يخيفني، ماذا أفعل الآن؟

- لا شيء، حسب ما قلت لي إن كان لديها ذوق وإحساس ستغادر وحدها، وإن لم يكن؟

- لا تخف، سآتي أنا الأخرى لخطبتك، فأنا أحق منها بك، وضحكت.

قال وهو يضحك: قد أحتاج بعض الوقت للتفكير إن كنت سأقبل بكِ أم لا.

- إذن لا تخف من يحب فتاة مثلي، لا يجب أن يخاف.

- أعرف ذلك، سبق وقلت لكِ أنتِ جيشي الوحيد.

***

بعد أن أوصلت يارا، وأنا في طريقي لبيت جهاد، اتصلت أمي، وقالت بأن ماري ليست في البيت، وأنها تريد أن تحادثني بموضوع مهم قبل عودتها، لم أستطع إلا أن أستجيب لرغبتها، فتوجهت نحو البيت.

عند دخولي البيت، كانت أمي تضع فنجانين من القهوة وتنتظر قدومي وحدها، بعد أن تحدثنا قليلًا، قالت لي:

- إن ماري خرجت للسوق مع والدك، فهو بحاجة لمن يساعده في مثل هذا الجو المتقلب، وبما إن ابنه قد ترك البيت و رحل، فقد تطوعت ماري مشكورة لمساعدته.

- هنيئا لكما بها.

- وأنت يا بني، ألا تراها فتاة طيبة؟

- لا أدري.

- إنها تحبك كثيرًا، هل تعرف ماذا يعني أن ترفض ابن خالها لأجلك؟

- أمي أنا لا أحبها ولم أعدها يومًا بشيء على العكس كانت هي من تحاول أن تزعجني وتزعج يارا

- لا أريد سماع اسمها

- امي، لماذا لم تقولي لي أن يارا هي من اتصلت بكِ في ذلك اليوم المشئوم، عندما أتيتِ لأخذي من بيتهم؟

- بالطبع ستقول لك.

- هي حتى الآن لا تعرف إنكِ لم تخبريني، و تظن إنكِ منزعجة منها لأنها لم تستطع فعل شيء سوى الاتصال بكِ..

- حقًا، أنا لم أخبرك ليس لأني أكرهها، أنت تعلم كم كنت أحبها، لكنها لا تناسبك ولا عائلتها كذلك، أنسيت؟

- بل وحدها من تناسبني في هذا العالم.

- دعك منها، إن ماري.

- لماذا لم تغادر البيت بعد كل ما سمعته مني؟

- لا تستطيع

- لماذا؟ هل أخذوا منها البيت؟

- لا، لكنها قالت لخالها، عندما رفضت طلب ابنه إنها تحب شابًا زميلًا لها و من عائلة صديقة لأمها، وإنه سيخطبها بعد يومين، ولن تعود للبيت قبل ذلك.

- من هذا الشاب؟

- ألا تعرف؟

- أخشى أن يكون

- إنه أنت فعلا.

- ما هذه الجرأة بل الوقاحة؟ هل تظن إنها بهذه الجملة ستأسرني؟

- أنا لم يعجبني هذا التصرف منها كثيرًا، لكن في النهاية ما حصل قد حصل، وعليك أن

- سأتصرف يا أمي، لكن لن أخطبها ما دمت حيًا.

- اهدأ يا بني، أرجوك.

وخرجت مسرعًا دون أي حديث إضافي، عند خروجي وجدتها وأبي قادمان يحملان الكثير من الأغراض اتجهت نحو أبي وأخذت منه الأكياس التي يحملها، ورمقتها بنظرة مرعبة كنظرات يارا وذهبت..

كل من في هذه الحياة يخطط لنا كيف يجب أن نعيش، كل منهم يرسم لنا حياة تليق بأحلامهم، لا أحد يفهم حاجتنا لأن نشعر بوجودنا وبقدرتنا على اختيار حياتنا بأنفسنا، لماذا هي حياتنا إذن؟

إن يارا تتصل بي، سأجيب بالطبع، لكن لن أخبرها عما جرى حتى أراها في الغد، سنتحدث قليلًا فحسب وبقينا نتحدث ما يقارب الساعتين، ثم بدأ النعاس يسيطر على كلانا، كدنا أن ننام ونحن نتحدث.

في اليوم التالي وبما إنني بلا عمل حاليًا، أوصلت جهاد للعمل و ذهبت أتجول بالأرجاء فليس من الأدب أن أبقى في بيته وحيدًا مع أمه، وبيتنا الآن لا أدري إن كانت فيه ماري أم كانت في العمل، إنها تحتل المكانين في ذات الوقت، فماذا أفعل بنفسي؟

ذهبت طبعًا لأرى بعض أصدقائي العاطلين عن العمل في المقهى، إن بلادًا باتت خالية من الوظائف، ندرس ونتعلم حتى ندخل رحلة بحث طويلة عن العمل، أنا لم أحصل على وظيفتي هذه في الشركة الخاصة إلا بعد تخرجي بست سنين، فالكل يطلب خبرة لا تقل عن خمس سنوات، والخبرة تأتي من العمل، ولا عمل لي هكذا حتى استطعت التدريب في شركات كثيرة كانت أخرهم هذه التي أعمل بها حاليا.

أما ما تبقى من اصدقائي فلا يزال يبحث عن فرصة عمل جيدة، حتى أنهم يقبلون بعملٍ لا يحتاج شهادة، لكن حتى هذه الوظائف أصبح عدد المتقدمين لها كثيرٌ جدًا، فلماذا نتعب أنفسنا في هذه البلاد التي لا مستقبل لنا فيها ولا حياة كريمة!

حان وقت انصراف يارا و جهاد، سأعود للمنزل مع جهاد وبالطبع سأوصل يارا في طريقي، يبدو أنهم على حق فأنا أعمل سائق أجرة للجميع لكن دون أجرة!.

بالطبع جلست يارا في المقعد الأمامي بجانبي، وجلس جهاد المسكين في المقعد الخلفي، قالت يارا: أوصلني أولًا أيها السيد، كم تأخذ أجرة عادةً؟

قلت لها:

- أنا لا أتعامل بالنقود

- إذن، بماذا تتعامل؟

- إن كان عليَّ أن أوصلكِ للبيت، فعليك دفع الثمن قبلة تطبعينها على خدي الأيمن كلما مشينا كيلومتر.

- حقًا، وهل ستأخذ من جهاد الأجر ذاته؟

- وما حاجتي بهكذا أجر من جهاد؟

قالت وهي تنظر لجهاد ضاحكة: لو كنت مكانك لطردته من البيت

قال جهاد ضاحكًا:

- يبدو ذلك..

قلت:

-يارا قد حدث شيء أمس، لم أرد إخبارك به

- فلماذا تخبرني الآن؟

- ألم تقولي بأن ماري ستترك البيت، وإن لم تفعل ذلك ستجدين لي حلًا؟

- بلى

- لم تتركه وقد علمت أمس من أمي إنها قد أخبرت خالها بأني أحبها وسأذهب معها بعد يومين لخطبتها من خالها! فما رأيك؟

- رأيي بأنك ستأتي غدا صباحًا لإيصال جهاد وتأخذني أنا وهو في نزهة

- نزهة! هل تمزحين! ما هذا الهراء؟

قالت وهي تشير لجهاد بأن يوافق:

-ما رأيك يا جهاد في ذلك؟!

قال:

-لم لا، نحن بحاجة ليوم نتنزه به هل ستخبرين دنيا بهذا؟

- بالطبع لا، لا تخبرها، فأنت تعلم منذ البداية أنها تظن إن كل شيء أنتهى بيني وبين هادي، وقد قطعت عهدًا لي بأن لا تخبرها بشيء، أم تراك تخبرها.

- ابدًا، أنا ظننت إنها نزهة عادية.

- أي يكن يا جهاد، احترس

- لا بأس

***

في اليوم انتظرت أمام عملي، حتى يأتي هادي و جهاد لأخذي، فور وصولهما عاد جهاد للمقعد الخلفي و ترك لي المقعد الأمامي، جلست وقلت:

- كم أن ذوقك رفيع يا جهاد.

قال هادي: جدًا، أنا من طلبت منه ذلك.

قال جهاد: بل من تلقاء نفسي.

قلت: لا يهم، أنتما الاثنان رائعان.

؟ قال هادي: إلى أين تودين الذهاب يا عزيزتي

- إلى رام الله بالطبع.

نظر الاثنين في بعضهما بحيرة، وقالا: رام الله؟

- نعم، ما المشكلة في ذلك؟ لن تستغرق الطريق أكثر من ساعة أو ساعة ونصف، هيا بنا

- لكن لماذا رام الله؟ قال هادي

- أحبها، على كل حال، إن لم ترغبا بمرافقتي أذهب وحدي، فأنت لا تضيع بها، يكفي أن تصل إلى دوار المنَارة، الذي يتكون من أربعة أسود كل أسد فيهم ينظر إلى جهة من الجهات الأربعة، فكل الطرق تؤدي إلى المنَارة برأيي حتى تستطيع التجول بها براحة، فماذا قلتما؟

- قال هادي:

-حسنا، سنذهب لنرى ما نهاية هذا الأمر؟

وصلنا رام الله بعد ساعة ونصف، كانت الساعة قد وصلت العاشرة، دُرنا في الأسواق نبحث عن أي شيء، حتى أخيرًا وصلنا إلى محل بيع مجوهرات، قال هادي:

- هل ترون هذا المحل؟

- نعم.

- إنه محل خال ماري.

- وكيف عرفت بذلك؟

- أنا أعرف خالها وأسم عائلة امها هو ذات هذا الاسم " الصاغاتي"

دخلت فورًا للمحل دون تردد، وتبعني هادي و جهاد وجدنا رجلًا في بداية الخمسينيات من عمره، يغزو الشيب رأسه مع بعض الشعرات التي تحاول إخفاء الشيب، قلت له:

- صباح الخير

- صباح الخير

- في الحقيقة لقد أحببت أن أهدي خطيبي، وأشرت إلى هادي قائلة: هادي هدية مميزة فبماذا تنصحني؟

قال:

- ما تشائون، اقترب يا هادي واختر ما يعجبك

اقترب هادي بخجل و توتر واضحين على وجهه، وقال:

- مرحبًا

قال الرجل:

-أهلًا، أنا أعرفك كنت معنا في جنازة إلين، وأنت الذي أسعفتها للمشفى، هل اسمك هادي؟

- نعم أنا هو

- وهل أنت خطيبها حقًا؟

- نعم

تدخلت فورًا وقلت:

- سنخطب قريبا، ربما حين تعود ماري لمنزلها، فلازالت تقيم في منزل هادي.

قال وهو ينظر لهادي: هل ماري تقيم في منزلكم حقا؟

أجاب هادي:

-نعم، لكن أنا أقيم هذه الفترة في منزل صديقي جهاد إلى ان تعود ماري لمنزلها

- فأنت هادي الذي قالت إنه سيخطبها إذن؟

قلت له:

-كيف سيخطبها وهو خطيبي والكل يعرف هذا؟ ما رأيك يا جهاد ألست خطيبته؟

قال جهاد:

- بلى يا عم صدقها إن ماري مجرد زميلة لهادي في العمل وطلبت المساعدة من أهله.

- حسنًا، سأحل الموضوع بنفسي، أكتب لي يا هادي عنوان بيتك، وأنتِ يا عزيزتي اختاري أي هدية تعجبك وسأعطيك خصمًا، فأخباركِ جميلة كوجهك.

قلت له: لا داعي لذلك يا عم، لم يعد الذهب برأيي الخيار الأفضل، شكرا لك

وخرجت وقد خرجا ورائي مذهولان، ينظر أحدهما للآخر دون أن يتكلما، نظرت إليهما وقلت بابتسامة نصر:

- ها قد حلت المسألة في دقائق، أنا جائعة.

قال جهاد: ما هذا يا يارا، قد فاجأتني كثيرًا كم أنت محظوظ يا هادي، ليتني أجد كل هذا الحب في فتاة، و أقسم أني لن أتركها أبدًا..

قال هادي:

-ومن قال إني قد أتركها يومًا، ألف غداء لعيونك يا حبيبتي، هيا بنا.

***

بعد أن تناولنا الطعام عدنا مسرعين إلي بيت لحم، وعادت يارا لمنزلها وأنا وجهاد إلى منزله

في تمام الساعة السابعة مساءً رن هاتفي، كانت أمي من تتصل، أستطيع ان أتكهن ماذا تريد مني طلبت مني الذهاب للبيت بأسرع وقت.

خلال ربع ساعة كنت في البيت، و قد لاحظت وجود سيارة غريبة أمامه، قرعت الجرس ثم دخلت، كانوا أمي وأبي و ماري جالسين في غرفة الضيوف و بالمقعد المجاور لهم كان يجلس خال ماري وربما ابنه، دخلت وألقيت التحية ثم قلت:

- ما الأمر؟

نظرت إلي أمي نظرات لوم، وقالت لخال ماري:

-هل هذا هو؟

قال:

- نعم

سألني أبي:

-هل كنت اليوم في رام الله؟

قلت:

-نعم وقد دخلت بالصدفة إلى محل الخال، وكان معي جهاد و

قالت أمي:

- و يارا.

قلت:

- وخطيبتي يارا نعم.

قالت امي:

-ليست خطيبتك بعد.

قلت: ستصبح قريبًا.

قال الخال:

-ما رأيك يا ماري؟ لم بعد هناك أي مجالٍ للكلام ها هو ذا يعترف أمامك وأمامنا بأنه يحب تلك الفتاة و سيخطبها قريبًا؟

قالت امي:

-لن أخطبها له.

قلت:

-سأخطبها بنفسي وأبي معي

قال والدي:

-يكفي يا برناديت، إن هادي يحب يارا والكل يعرف هذا، وسيتزوجها عاجلًا أم أجلًا، لننهي هذا النقاش.

. قال الخال:

– هيا يا ماري، علينا الوصول باكرًا لرام الله هيا يا حبيبتي ولا تقلقي أبدًا

خرجت ماري وهي تنظر إلي نظرات خيبة وكأنها تقول لا تدعهم يأخذوني، لكني لا أستطيع أن أساعدها، هي من فعلت هذا بنفسها، ليتنا بقينا صديقين لكنت قد دافعت عنها حتى النهاية، لكنا تمادت كثيرًا و كان يجب أن ينتهي كل شيء.

بعدما غادرت، ظلت أمي تلومني طوال الليل، وتحملني مسئولية ما حدث وما قد يحدث لماري، في البداية أزعجني كلامها لكن فيما بعد لم أعد أكترث، بل ذهبت لمنزل جهاد وأعدت حقيبتي بكل ثقة وسعادة، وأخبرته بما جرى، وكان أكثر فرحًا مني، ربما لأني أزعجتهم طيلة الفترة الماضية بوجودي، كما أزعجتني ماري.

مرت خمسة أيام على غياب ماري، وبقي لموعد السفارة الثاني ما يقارب الأسبوعين، وأمي منذ ذلك اليوم وهي حزينة وتزداد حالتها سوء، في البداية كانت لا تأكل بناء على رغبة منها بعدم الأكل، لكنها الآن لم تعد تستطيع الأكل، اصفر وجهها وبان الوهن عليها، لا تكلمني إلا للضرورة، وتلقي اللوم عليَّ دومًا.

***

حينما علمت بمرض والدة هادي، انزعجت كثيرًا، وخمنت كم سيكون وضع هادي حرجا في هذا الوقت مع أمه، وقد تلقي اللوم عليَّ أنا بما حصل، فأنا السبب بكل ذلك، أولًا أنا حبيبة هادي التي بسببها لا يريد الزواج من ماري ثانيًا أنا من ذهبت لخال ماري وأخبرته بكل شيء لكي يأتي ويأخذها، ولكني لست نادمة على ذلك، ولو تكرر الموقف ألف مرة لتصرفت بذات الطريقة ألف مرة.

إن مرضها يزداد، وها هي الآن تدخل في اليوم العاشر من المرض، ومن واجبي ومن أجل هادي الذهاب لزيارتها، وهذا ما سأفعله اليوم بعد العمل فقد طلبت من هادي أن يأتي ويأخذني إلى بيتهم.

عندما وصلت البيت، كانت أمه تستلقي في غرفة المعيشة، مقابل التلفاز، تحاول أن تشغل نفسها بأي شيء لكي لا يتمكن منها التعب، بمجرد دخولي البيت، اقتربت منها وقبلتها جبينها، ثم قلت لها:

- إن حرارتكِ مرتفعة، هل رآكِ طبيب؟

قالت بفتور:

-لا أريد أي اهتمام منكِ، لا تتصرفي ببراءة، ما هذا البيت؟

فقال هادي:

-أمي، لقد جاءت لزيارتك، من أجلي كوني لطيفة معها

قلت لها:

- أنا أردت أن أطمئن عليكِ ليس أكثر، لكن إن كان وجودي في البيت يزعجكِ سأذهب حالًا.

قال العم جيروس:

- ليس قبل أن تفي بوعدك

قلت:

-أي وعد؟

قال:

-القهوة، هل نسيتِ إن بي رغبة شديدة لشربها من يديكِ، ثم إن برناديت تحبها كثيرًا

قالت: أنا لا أحب شيئًا.

قلت: حسنًا، سأجهزها في الحال..

دخلت المطبخ و دخل هادي لمساعدتي وما إن جهزت القهوة وقدمتها حتى استأذنت وطلبت الانصراف، لكن العم جيروس قال:

– لن تذهبي حتى تشربي معنا، أم إنك خائفة من رأينا بها؟

قلت:

– أبدًا، لكن يجب أن أذهب

قال هادي:

– لن أتزحزح من مكاني قبل أن أشرب القهوة، هذه أول مرة تتاح لي فرصة تذوق قهوتك ولن أفوتها أبدًا.

تناول هادي ووالده القهوة وقد أعجبهم مذاقها، فقال العم جيروس لزوجته:

– تذوقيها يا برناديت، قد تعجبك.

– لا أريد ذلك.

أخذ هادي فنجانًا لأمه، وطلب منها أن تجربه، وبعد إلحاح طويل منه تذوقتها، ثم نظرت نحوي وقالت:

– جيدة، لكنها خفيفة قليلًا، كم ملعقة وضعتي بها؟

قلت لها:

- أربعة

قالت:

- كان يجب أن تضعي خمسة، لا أربعة

قلت:

- إنكِ على حق، فأنا لم أعرف تماما كم ملعقة يجب أن أضع فيها.

قالت بهدوء:

- فكما ترين ستتعلمين، ما رأيكِ ان تأتي غدًا صباحًا لتساعديني في المنزل؟ أنا متعبة جدًا.

قال هادي: و عملها يا أمي؟

قالت: لتأخذ إجازة كما تفعل دومًا، ما رأيكِ؟

قلت:

- بالطبع، هذا يسعدني

- سيحضرك هادي غدًا صباحًا فاستعدي.

قلقت من كلامها كثيرًا، شعرت بأنها تتوعدني، لكن لا بأس من الضروري أن تقبل أم هادي بي يكفي أن أمي لم تقبل بهادي، نحن نحتاج دومًا لدعوات الأمهات في حياتنا، بدونهن تتحول الحياة إلى جحيم دائم.

في صباح اليوم التالي، وكما اتفقنا، وصلت بيتهم باكرًا، وكان هادي طول الطريق يقنعني بأني لست مجبرة على فعل ذلك من أجله وأنه يحبني ويعلم جيدًا أن أمه لا تحبني لكني رغم هذا أصررت على الذهاب.

بقينا وحدنا في المنزل، طلبت أن أجهز القهوة وبعدها أبدًا العمل، طلبت أن نرتب الغرف أولًا ثم نرفع السجاد و ننظف مكانه ونعيده بعد أن تنشف الأرض، مسح البلور وتنظيف المطبخ وترتيب غرف الضيوف، و تغيير ديكور غرفة المعيشة.

كان عملًا شاقًا ومتعبا جدا شعرت للحظة أن اليوم لن ينتهي وسيدوم طويلا، كنت أنظر للساعة بين الحين والآخر أترقب عودة هادي، لكني ورغم ذلك كله حاولت أن أرضيها بأي طريقة كانت، أخيرا وفي تمام الساعة الثانية والنصف كان كل شيء كما تحب، ثم قالت

- هل تطهين لنا شيئًا لذيذًا؟ ان كنتِ تجيدين ذلك.

قلت لها:

-بالطبع، ماذا تحبين أن تأكلي؟

قالت:

- لا فرق عندي.

لم أعرف ماذا يحبون وماذا يجب أن أطبخ حتى وجدت كيس ملوخية في الثلاجة، أخرجته و طبخته، فهي أكثر طبخة أحبها، لذا أحفظها عن ظهر قلب، كانت أم هادي تنتقل طول اليوم من كرسي لأخر وتلقي عليَّ الأوامر في كل وقت، لا أعرف كيف تفعل كل هذا وهي مريضة؟

حينما دخل هادي، وبمجرد أن وضع قدمه في البيت، قال:

- ما كل هذه النظافة؟ هل أنا في بيتنا؟

قالت أمه:

- ماذا تقصد؟ نحن نفعل هذا دومًا.

قال:

- أجل، نسيت.

ثم دخل المطبخ و رآني وأنا أحضر الطعام، وشعري منعقد إلى الخلف وأرتدي مريول المطبخ وأظن إن رائحتي كانت كلها رائحة طعام، قال وهو يضحك:

- أمي من أين حصلتِ على سيدة البيت هذه؟

خلعت المريول فور سماعي صوته وقذفت به في وجهه وقلت: لماذا تأخرت لقد جاع أولادك في انتظارك.

نظر إلي بذهول وضحك، ثم قال:

- من أنت؟

قالت والدته: هيا أحضرا الطعام قبل أن يأتي جيروس ويأكلنا.

وضعنا الطعام على المائدة وانتظرناه حتى جاء، وانقض فورًا على الطعام دون أن يلقي التحية على أحد منَّا، قالت زوجته:

- على رسلك، لن يطير الطعام.

قال:

-أنا جائع جدًا، و طبخك قد تحسن كثيرًا يا برناديت.

نظرنا أنا وهادي لبعضنا البعض ورحنا نضحك، فنظرت إلينا بحرج وقالت:

-لكن لست أنا من طهى هذا الطعام.

قال:

-بل أنتِ أنا أعرف طعامك منذ أن تزوجنا، هكذا كان في البداية، يبدو أن زيارة يارا أسعدتكِ لذا اكتسب هذا الطعم الرائع.

قالت:

- أجل، لقد ساعدتني مشكورة.

فقلت:

- لا داعي للشكر، لكن إن كنتِ تريدين شكري فلي عندك طلب

قالت:

-تريدين الزواج بهادي؟

قلت:

-لا، أقصد نعم، لكن ليس هذا هو طلبي.

قالت:

- ماذا إذن؟

قلت:

- أريد ان تسمحي لنا باستدعاء الطبيب، لقد تحسنت صحتك كثيرًا اليوم، ولا أعتقد انه سيعطيكِ حقنة.

ضحك الجميع و احمر وجهها، وقال العم جيروس لهادي:

- لقد أفشيت سرها يا هادي

- أعتذر، لا أدري كيف حصل ذلك.

قالت:

- ومن قال اني أخاف.

قلت:

-دعينا نثبت لهذين الرجلين انهما مخطئان، ما رأيك؟

قالت:

حسنًا.

اتصلنا بالطبيب و حضر بعد قليل و دخل ليراها وطلب من الجميع الخروج لكنها عندما رأتني أخرج وأردت أن أغلق الباب خلفي، نادتني وقالت:

- ابقِ معي فأنا حقًا أخاف، ولا أريد أن أقول لهما

ابتسمت لها وقلت:

-بكل سرور.

بقيت بجانبها، وأمسكت بيدها وصرت أحدثها وأقص عليها القصص كما لو كانت ابنتي الصغيرة، وهي تنظر إلي كمن يستنجد وتندمج بالقصص التي كانت تعرفها أكثر مني.

ثم قال الطبيب:

-أنتهينا.

قالت:

-من ماذا أنتهيت؟

- سيبدأ مفعول الحقنة خلال ساعة، أتمنى أنكِ لم تتألمي؟

- أتألم؟ لم أشعر بشيء

- هذا جيد، سأكتب لكِ بعض الأدوية، التزمي بها رجاءً.

قلت:

- لن نتركها بالتأكيد

حينما خرج الطبيب، دخل هادي و والده والاستغراب بادٍ على وجهيهما، ثم قال العم:

- برناديت، هل أنت بخير؟

- أجل، لقد أخذت الحقنة ولم أخف منها ولم أشعر بها حتى، أليس كذلك يا يارا، أن اسمك صعبُ في المنَّاداة.

قال هادي:

-قلت لها هذا مسبقًا

قلت:

- أجل أنت لم تخافِ أبدًا وبالنسبة لاسمي يمكنكِ منَّاداتي بابنتي لكن أنا ليس لدي ابنة!

- فاعتبرني ابنتك من الآن، ما رأيك؟

قال العم جيروس:

- وأنا أيضًا؟

قلت:

-نعم، كلاكما فأنا لا أريد أن نخسر عائلتينا، سنحتاج دومًا إلى من يرشدنا ويقودنا ومن يدعو لنا.

قالت:

-حقًا، ستحتاجون لنا؟

قلت:

- بالطبع، عندما نهاجر سنرسل في طلبكما للعيش معنا فلا حياة لكم هنا بعيد عنا، هذا وعد مني ومن هادي.

قالت:

- يا لكِ من ابنة صالحة، ليت أهلكِ يقبلون، لرأيتِ ما نفعل لأجلك..

قال هادي:

- وأخيرًا تصالحت أميركا و روسيا، حمدا لله، أنه أجمل أيام حياتي..

قضينا وقتًا ممتعًا، لكن الوقت تأخر واضطررت للعودة للمنزل فقد اخترعت حجج عديدة حتى استطعت البقاء إلى ذلك الوقت، لكن لم يعد يهم أي شيء، فقد بدأ العد العكسي، وبدأت الحياة تبتسم في وجهي.

***

جاء موعد السفارة الثاني أخيرًا، كررنا ما فعلناه بالمرة السابقة ووصلنا السفارة في تمام الساعة الثانية عشر ونصف، المقابلة اليوم مهمة جدًا وعلينا طلب الاستعجال فيها، فلم يبقى لزفاف يارا سوى شهر واحد.

دخلنا المكتب، وجلسنا على مقعدين متجأورين مقابل لجنة السفارة، قالوا:

- لقد تقدمتما بطلب هجرة واحد لكما الإثنين؟

قلنا:

-نعم

قال أحدهم:

-ولماذا تريدان الهجرة..

قلت:

-إننا نبحث عن المستقبل نحن نحب بعضنا منذ ما يقارب العامين ولا نستطيع الزواج

- لماذا؟

- أنا شاب مسيحي وهي فتاة مسلمة ووفق عاداتنا لا يجوز لنا الزواج

- وفي كندا؟

قالت يارا بحماس: نستطيع أن نتزوج مدنيًا وأن نحيا هناك دون أن نخاف من غدر أحدهم، فنحن إن تزوجنا هنا سنتعرض للخطر من عائلاتنا..

- وهل أحضرتم الوثائق المطلوبة؟

قلت:

-بالتأكيد، وان صديقي قد أرسل لنا تأشيرة زيارة و دعمها بكفالة مالية

قالت اخر عضوات اللجنة: هذا جيد، راجعونا بعد شهر من الآن

قالت يارا:

-لا نستطيع، بعد شهر حفل زفافي من رجلٍ لا أحبه ستحكمون على حياتنا بالانتهاء ان فعلتم هذا.

قالت لها: نحن نشعر بالآخرين، لكن الموضوع ليس بهذه البساطة، لكن ان أردتما سنسعى لكما في تأشيرة الزيارة، وتتابعان هناك موضوع الهجرة، لكن بشرط أن تحضرا معكما بعد أسبوعين عقد زواج مدني، أرفقه بالتقرير.

- حسنًا سنفعل ذلك، شكرا لكم

دخلنا سعيدين جدا وخرجنا والحيرة تقتلنا، قالت لي يارا:

- هل تعتقد أننا سننجح؟ أنا خائفة جدًا

- لا تقلقي، سيسير كل شيء على ما يرام

- لم يتبقى أمامنا سوى شهر واحد.

- في أقل من شهر سنكون قد سافرنا

- وماذا عن عقد الزواج المدني؟

- سنذهب لأي محام ونطلب منه إبرامه، لا تقلقي يا حبيبتي.

***

مرت الأيام وقد تحسنت قدم سعيد، وعاد لزيارتنا كل يوم، وصار يطلب مني مرافقته لأماكن عديدة، لتجهيز البيت الذي سنبقى فيه شهرين فقط ولتجهيز نفسه ولشراء فستانٍ لي.

موعد السفارة سيكون غدًا، وقد ذهبت أنا وهادي اليوم لمحامٍ وانهينا عقد الزواج المدني، عندما خرجنا قال لي:

- أنتِ الآن زوجتي، لا يحق لأحد أن يتحكم بنا بعد الآن.

- وأنت الآن زوجي، ولن تفكر مطلقًا أن تنظر لسواي، وإلا طلقتك

- أنت تطلقيني؟

- ولم لا، ان هذا الزواج يضمن لك حقك ويضمن لي حقي.

- وهل تحملنا كل هذا الألم لتطلقيني؟

- وهل تحملنا كل هذا الألم لتنظر لغيري؟

- وهل أنظر لوردة ولدي بستان؟

- قل هذا لنفسك.

- أقوله دومًا.

- جيد.

من المفترض أن يقام زفافي أنا وسعيد بعد أسبوعين من الآن تقريبًا، حينما عدت للبيت، لم أعرفه، مليء بالأغراض الكثيرة، يبدو أن والدايَّ سيعيدان ترتيب المنزل قبل حفل الزفاف، أن الجميع سعيد، في منزلي ومنزل سعيد وحتى منزل هادي، يا لسخرية القدر، إن عائلتي سعيدة بزواجي، في الوقت الذي أنا فيه سعيدة بزواجي من هادي، إن نظرت للأمر من الخارج لظننت أنى أكثر واحدة سعيدة بزواجي من سعيد!

حينما دخلت غرفتي وجدت حقائب سفر كبيرة أحضرها لي سعيد، لأنقل فيها ملابسي من بيتي إلى بيته، ليته يعلم كما أفادني بهذه الخطوة بالذات، فلن يكون موضوع حزم الحقائب وإخراجها صعبا كما توقعت، ثم جاء أبي وقال لي:

- إن زفافك بعد أسبوعين، وقد حان الوقت الآن لعقد قرانكما، فلم يعد لديكِ حجة

. -لكن يا أبي، فلننتظر هذان الأسبوعان

كيف لي أن أخبره أنى تزوجت قبل قليل بهادي، وأنه لم يعد لي الحق في الزواج من سعيد أو غيره، لماذا تجبرنا العائلة دومًا على الكذب؟ نحن نحبهم حقًا ونتمنى أن يدركوا أن التدخل الزائد وإلقاء الأوامر من الخارج كما يفعلون، ما هو إلا تعب وإرهاق كبير يقذفوننا إليهما.

واصل والدي الحديث وقال:

- لا يصح هذا يا بنتي، عليه تقديم الأوراق والجواز قبل الزفاف بأسبوع على الأقل

- حسنًا يا أبي الأسبوع القادم أكون قد أصدرت جواز سفر ونعقد القران، هل هذا يناسبك؟

طبع قبلة على جبيني وقال:
- أجل يا بنتي، بارك الله فيكِ، أنا سعيد جدًا أنك عدتِ إلى رشدك ولحضن عائلتك.

كلما مرت الأيام زاد شعوري بالخوف والقلق، إن والدايَّ لا يستحقان هذا التعب، يوما بعد يوم تزداد ثقتهما بي ويدركان أني قد سلمت أمري لله وقبلت الزواج من سعيد، أنا حقا لا أريد أن أخدعهما لكنهما من قررا الوقوف في وجهي وأصَّرا على تزويجي لسعيد، ربما لو لم يفعلا ذلك لكنا قد وصلنا إلى حل يرضي الجميع، لكن الحياة لا تكف عن تحميلنا ما هو فوق طاقتنا، تدفعنا يوميًا إلى الجحيم دفعا، وكأنها تهدينا المصائب وهي سعيدة بذلك!

***

ها نحن من جديد في السفارة أنا ويارا آملين أن نحصل على هذه التأشيرة اللعينة، ختم صغير في جواز السفر نسعى خلفه لأشهر وربما سنوات لنحصل عليه، ونعتبر من المحظوظين إن حصلنا عليه.

الجميع يريد السفر والهجرة، و جميع الدول بدأت تضع الشروط التي لا تنتهي لتعطي المهاجرين الإذن بالسفر، بتنا أرقامًا في عصر الدول الكبرى، يسمحون لعدد معين للهجرة كل عام، ونحن كلما سمعنا عن دولة فتحت باب الهجرة، ركضنا نحو أبوابها باحثين عن فرصة حياتنا، لكن لماذا لا نجد هذه الفرص في بلادنا؟

أخيرًا جاء دورنا، اللجنة ذاتها والمقاعد ذاتها، أخالهم جالسين هنا منذ أن عينوا بالسفارة، يا لصبرهم الطويل، لكن صبرنا أطول، قالت رئيسة اللجنة:

. - هل أحضرتما عقد الزواج المدني؟ فهو سيساعد كثيرًا في طلب الهجرة

- أجل، إنه معنا.

- جيد، سأرفقه الآن إلى ملف الهجرة، في الواقع كنا بحاجة للتأكد من قصة زواجكما

- وهل تأكدتم الآن؟

- أجل

- إذن ماذا نفعل؟

. - لا شيء، ستعودان بعد شهر لمتابعة أمر الهجرة

نظرت يارا نحوي وقالت:

- شهر بعد الآن، هل هذا جدي؟ سأكون عقدت قراني على سعيد وتزوجت به وأنا في الوقت ذاته زوجة لك، ما هذا الذي يجري

قلت لها:

- اهدأي، سنجد حلًا، حتى لو اضطررنا للبقاء في السفارة والاعتصام بها حتى تأتي موافقة الهجرة وإن اضطررنا للبقاء عامًا كاملًا هنا، لن أدعكِ تتزوجين ذلك الغبي.

قالت رئيسة اللجنة:

-على رسلكما، أنا تحدثت عن طلب الهجرة، ولم أتحدث عن تأشيرة الزيارة.

قلنا معا: ماذا تقصدين؟

قالت:

- لقد حصلتما على تأشيرة الزيارة وهي سارية منذ الغد.

- حقا؟

- هل تسمع هذا يا هادي؟

- أجل وأخيرًا أنت الآن زوجتي دون نقاش

- إذن بإمكاننا السفر منذ الغد، الحياة السعيدة بانتظارنا، لن أنام هذه الليلة أبدًا، فور وصولي البيت سأحجز على أول طائرة متجهة من الأردن إلى كندا.

قالت يارا:

هل نسافر غدًا؟عليَّ تجهيز أغراضي والاستقالة من العمل وأنت كذلك، وأريد توديع عائلتي، سأعمل حفلًا كبيرًا غدًا أودع به الجميع دون أن يشعروا.

- جيد، فكرة حسنة

***

إن هادي يقول إن الطائرة ستقلع بعد غد من مطار الملكة علياء الدولي في تمام الساعة الثالثة عصرًا، هذا يعني أنه يجب علينا أن نصل الأردن حوالي الساعة الثانية عشر على أبعد تقدير، وأن نخرج من البيت صباحًا باكرًا، لا مشكلة لدي في الخروج صباحًا، لكن المشكلة في نقل الحقائب، إن هادي يقول أن لا حاجة للحقائب وللملابس عليَّ اختيار الملابس التي أحب والأغراض الضرورية ووضعها في حقيبة اليد وفي أكياس و أتظاهر أني سأبدلها على مدار يومين أكون قد أخذت كل ما أحتاجه من ضروريات.

اتصلت بأخويّ إبراهيم وإيهاب وكذلك أختي نور وطلبت منهم أن يحضروا عائلاتهم في الغد لأني سأقيم حفلًا عائليًا لهم، وهذا ما حدث، بعد أن اجتمعت أنا وهادي في النهار ورتبنا أمورنا، وجدتهم ينتظروني في المنزل، وحتى سعيد قد جاء لوحده دون أن أدعيه، لكن هذه هي المرة الأولى التي لا أنزعج بها من وجوده.

قدمت لهم العشاء والحلوى، واستمعنا للموسيقى ورقصنا وارتديت بدلة الزفاف التي جلبها سعيد لي، وتصورت بها مع الجميع في كاميرا اشتريتها بنفسي، كانت صور عائلية تظهر مدى الحب والتفاهم الأسري، إحداهن صورة لي مع أمي وأبي، والأخرى مع أخويّ وواحدة مع أختي وصورة مع الأطفال، وصورة جماعية، كنت دومًا أجعل سعيد يصورنا بحجة ان صوره جميلة، كي لا يظهر في هذه الصور، تصورت معه صورة في النهاية طبعًا لكنني سأحذفه على ما أظن وقد أبقيها للذكرى.

ثم رقصت معهم واحدًا واحدًا ووثقت كل ذلك بالكاميرا، كانت أمسية رائعة تفوق الخيال، في نهاية الأمسية جلس أبي وحكى لنا حكاية، وتوجهت نظراته نحوي وقال:

-اسمعي هذه الحكاية التي حدثت معي منذ زمن يا يارا، وأنا في مثل سنك وربما أصغر قليلًا، أحببت فتاة نصرانية.

علت الأصوات حولي وهي تقول:

- ماذا؟ حقا؟ أبي؟

تابع قائلًا:

-لا يقاطعني أحد، كان اسمها إلين، تعرفت عليها وأنا أدرس في جامعة بيرزيت في رام الله، هي من عائلة غنية، يعمل أهلها بتجارة الذهب منذ زمن

استمر هذا الحب ثلاث سنوات، كنت بالطبع أعرف إنها نصرانية وهي تعرف أني مسلم، ظننا إن حبنا هذا أقوى من أي شيء، وبما أن الدين يسمح بهذا الزواج توقعنا أن يقبل والديها، وتقدمت لخطبتها خمس مرات، وفي كل مرة كانت عائلتها ترفضني، والداها بسبب الدين، أما أخاها فظن أني طامع بما يملكون، وبقينا على هذه الحال كما قلت لكم: ثلاث سنوات ثم قررنا الزواج دون أن يعلم والديها، وفي اليوم الذي تركت به إلين البيت تركت خلفها رسالة لوالديها، تقول بأنها هربت لتتمكن من الزواج بي، وقبل أن نتزوج بقليل وصلها خبر وفاة والدها، فندمت ندم عمرها وكذلك أنا، فتراجعنا عن هذا الزواج.

لذا يا بنتي أنا مدرك مدى الجرأة والقوة التي تتمتعين بهما، حتى استطعتِ التخلي عن هادي وستتزوجين سعيد بعد عشر أيام لتسعدينا وترضينا، حمدا لله إنكِ ابنة عاقلة لا تملؤها الأنانية التي كانت تملؤنا حيث كنا السبب في وفاة والدها، وهذا ذنب لا يغتفر

علمت ونحن مع سعيد في المشفى أنها توفيت يومها، و رأيت هادي مع ابنتها يواسيها، يبدو أنه يحبها، رغم حزني الشديد عليها إلا أن فرحتي كانت كبيرة لأن ابنتها وجدت الحب مع هادي، في حين وجدتك أنتِ مع سعيد، وبهذا تكون العائلات الأربعة سعيدة، أليس هذا أفضل من سخط الجميع؟

يا إلهي، ما هذه القصة، هل كان أبي حقًا يحب السيدة إلين؟ وتسببا في قتل والدها؟ وهل صحيح أن زواج هادي بماري أفضل من زواجه بي، لماذا لا تكتمل فرحتي أبدًا؟

لا أقوى على الحديث والنقاش ولا حتى على التفكير، تلاشت فرحتي تمامًا، وخفق قلبي خوفًا، لماذا قال لي أبي هذا الآن؟!

***

هيا يا يارا أسرعي لقد تأخرتِ كثيرًا من المفترض ان تأتي منذ قليل فالطريق لأريحا تحتاج لساعة من الآن، إن الساعة الثامنة، أخشى أن لا نلحق موعد الطائرة أن تأخرت أكثر من ذلك، هل اتصل بها؟

ها قد جاءت، قلت:

- لقد تأخرتِ كثيرًا، مللت أنا وجهاد من انتظارك، هل كل شيء على ما يرام؟

- خرجت في وقتي المعتاد، لم أستطع الخروج قبل هذا الوقت

- لا بأس، هل أنت جاهزة؟

- أظن ذلك، هل جوازات السفر معك؟

. - أجل كل الأوراق معي لا تقلقي حتى عقد الزواج إن لزم الأمر

- هذا جيد، هيا إذن.

سرت بسرعة متوسطة ورحنا نتحدث في الطريق، قالت لي عما فعلت أمس، وقد سرني هذا كثيرًا، ثم قالت إن والدها قال أمس قصة غريبة وإنه كان يحب السيدة إلين

وأنه حاول خطبتها خمس مرات وعائلتها رفضته، فقلت لها والشك يملأني:

- وماذا جرى بعد ذلك؟

- حاولا أن يهربا كما نفعل الآن لكن قبل أن يعقدا القران توفي والدها بعد أن علم بما فعلت فتراجعت عن ذلك.

- ما هذا الهراء؟

- أي هراء؟

- إن والد إلين توفي قبل خمس سنوات مع صراع مع مرض السرطان

- ماذا تقول؟

أجل، إن شئتِ أتصل لكِ بوالدي لتتأكدي.

- أرجوك

- حسنًا، سأفتح السماعة الخارجية لتسمعي

اتصلت بأبي وقد أكد ما قالته يارا وما قلته أنا فقد قال:

- إن إلين أحبت شابًا مسلم من بيت لحم حينما كان يدرس في رام الله، لكن هذا الشاب وبعد أن رفضه والديها من أول مرة، قرر الزواج من ابنة عمه المسلمة، أما والد إلين فقد توفي فعلًا قبل خمس سنوات بمرض السرطان.

- لماذا يقول لي هذا إذن؟

- يبدو انه يريد أن يشكر بقاءك مع سعيد على طريقته

- معقول؟

- أظن هذا

- أتمنى أن يكون الأمر كما قلت، فقد ازداد خوفي.

- وداعا يا أبي.

- رافقتكما السلامة.

ظننت أن هذا الاتصال سيخفف عنها ما هي فيه لكنه زادها خوفًا وقلقًا، فقالت:

- هل تعلم إنه يعلم بموت إلين، وقال إنه رآك تساند ماري، وظنكما تحبان بعضكما، حتى قال لي، إن هذا أفضل فبهذا الحب أسعدنا أربع عائلات بدلًا من سخط الجميع.

- لا تقلقي، سيكون كل شيء كما تريدين، وسيقبلان في النهاية.

- ألن يحدث شيء؟

قال جهاد: لا تقلقي، سأخبركِ بكل جديد.

ودعنا جهاد وأعطيته مفاتيح السيارة، وطلبت منه أن يسلمها للرجل الذي بعته إياها، ويرسل لي باقي ثمنها على حساب كميل في كندا، الإجراءات في جسر أريحا لا تأخذ من الوقت الكثير، لكن المشكلة فيها هي الأزمة الكبيرة، التي ستجعلنا ننتظر أكثر من ساعة، لكني أعرف إحدى الموظفات هناك كانت تعمل معي في شركة الحجوزات، اتصلت بها وساعدتنا فورًا في خمس دقائق كانت حقائبنا قد شحنت إلى الجانب الأردني وكنا نحن في الحافلة ننتظر أن تمتلئ

بعد خمس دقائق سارت الحافلة بنا، وصلنا الجسر الإسرائيلي فهي منطقة حدودية مشتركة بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية والأردن، وعليك اجتياز الجسور الثلاثة لتصل الأردن، للمغادرين من البلاد التفتيش سريع، حيث تحصل على تأشيرة الخروج و تفتش سريعًا في إحدى الأجهزة ثم تمضي إلى وجهتك، لكن القادمون يعانون كثيرًا، خلال الانتظار.

الآن نستطيع أن نعتبر أنفسنا على حدود الأردن، ولا سيطرة لأحدٍ علينا، لكن خوف يارا لم يزل بعد، رغم كل محاولاتي، قلت لها:

- أول مرة أراكِ فيها خائفة.

- ألا يستحق الموقف بعض الخوف، قد خرجت بعد أن بوركت من والديك، فماذا أقول أنا؟

وضعت يدي فوق يدها وقلت: لا تخافي سيكون كل شيء على ما يرام، هي بضع ساعات فقط، ونتزوج، ألا تودين قضاء الحياة معي للأبد؟

بلى، ولكن انظر كم شخص ألحقنا به الأذى قبل أن نتزوج، سعيد و ماري وبعد قليل والدايَّ وأخوتي وأختي، كيف لم أفكر بأختي نور هل سيتركها زوجها بعد أن هربت أختها مع شاب نصراني؟

-يارا!

- إن هذا كثير، لكي نتزوج نحن الاثنين، سنخرب كل هذه البيوت؟

- لقد تحملتِ كثيرًا يا حبيبتي خلال الفترة الماضية أنا أعرف هذا، لكن صدقيني نحن لا نفعل شيء سوى أننا نختار حياتنا، نرفض الحياة التي يرسمها لنا الآخرون، فلماذا نحاكم أنفسنا؟ إن كانت هذه نظرتنا لأنفسنا فلم نلوم الآخرين؟

- إنك على حق، أعذر خوفي.

- لا بأس، لطالما كنتِ قوتي وستبقين كذلك، ساعات وتمر.

- أتمنى ذلك.

وصلنا الجسر الأردني طوابير طويلة أمامنا ونحن كمسافرين للمرة الأولى علينا استصدار بطاقات الجسور، والتي تأخذ الكثير من الوقت، الساعة

الآن العاشرة، لن ننتهي قبل الحادية عشر والنصف، حيث سننتقل من طابور لآخر إلى أن ننتهي، ليت في بلادنا مطار لما كنا احتجنا لكل هذا الوقت والتعب، إن المطار الوحيد الموجود في أراضي الضفة الغربية على الطريق الواصل بين رام الله والقدس المعروف بمطار قلنديا، هو الآن تحت السيطرة الإسرائيلية وأظن إنه لا يُستعمل من قبلهم، ففي الأراضي المحتلةعام (١٩٤٨م) ما يزيد عن عشرة مطارات بينما نحن نسافر عن طريق الأردن و ربما هذا هو سبب هذه الأزمة الخانقة، فالجسر هو المنفذ الوحيد لكل سكان الضفة الغربية، فلن تستطيع السفر خارجًا، إلا أن مررت بالأردن وسافرت من مطارها، بالإضافة إلى وجود أعداد كبيرة من الفلسطينيين القانطين في الأردن لأسباب عدة أهمها طبعا هجرة النكبة عام (١٩٤٨م) ونزوح النكسة عام (١٩٦٧م)، انهينا عملنا أخيرًا الساعة الثانية عشر سنأخذ سيارة أجرة إلى المطار وسنصل خلال ساعة ربما لا أدري كم يستغرق الوقت منًّا.

***

وصلنا مطار الملكة علياء وأخيرًا، الساعة الآن الواحدة والنصف وقد بقى على موعد الطائرة ساعة ونصف، بدأت أشعر بارتياح قليل، فقد تجاوزنا الحدود ولا يزال أهلي يظنون إنني في العمل، لدي من الوقت ما يكفي لأطمئن على ما أعتقد.

عرض هادي أن نجلس في الاستراحة و نأكل أي شيء فقد تعبنا جدًا ولم نأكل شيئًا منذ الصباح، أحضر لي فطيرة جبن وشاي وله كذلك، وقال:

- سنأكل على ذوقكِ هذا اليوم.

- تقصد منذ هذا اليوم.

- لقد نسيت تمامًا. إنك من سيطهو سيكون طعام لذيذًا كتلك الملوخية التي حضرتها في منزلنا، أليس كذلك؟

- أجل، لكن أين؟

- أين ماذا؟

- أين سأحضرها؟

- في منزلنا

- وهل لنا منزلٌ في كندا يا حبيبي؟

- تبا!

- أنكِ على حق، كيف نسينا هكذا موضوع؟

- يا مجنونة، لقد أرسلت لكميل نقودًا وقد استأجر لنا شقة قريبة منه لست شهور

- حقًا.

- أجل، ليس هذا وحسب

- ماذا أيضًا؟

- الساعة الآن الثانية، أي إنها في كندا السابعة صباحا وسنصل بعد عشرين ساعة

- عشرون؟

- سنتوقف ست ساعات في مطار شارل ديغول في باريس، أظن انه أفضل مكان لشراء الملابس؟

- وهل سأشتري الملابس من المطار؟

- حمدًا لله، لقد عدتِ لطبيعتك، ظننت إن هذا سيستغرق وقتا أطول

- يا لك من مخادع

- سنصل تورينتو في تمام الساعة الثالثة فجرًا حسب توقيتهم، إن لم أكن مخطئًا

- وهل سينتظرنا كميل هناك؟

- أجل، وسنذهب فورًا لمنزلنا يا حلوة

- منزلنا نحن؟

- أجل، لم الخجل؟ أنتِ الآن زوجتي لا أصدق نفسي.

- ليس بعد

- كيف هذا؟ أولًا علينا إبرام عقد زواج مدني جديد في كندا.

- وثانيًا؟

- حفل الزفاف الضخم الذي ينتظرنا.

- لا تقلقي، لقد جهز كميل كل شيء سنذهب لمنزلنا لنرتاح وغدًا يحصل ما تريدين.

- وكم غرفة منزلنا؟

- واحدة طبعًا

- واحدة؟ فقط؟

- وهل نحن عصبة؟ أنا تعمدت أن تكون واحدة، حتى لا تجدي مكانا فيه للغضب

- وهل تنوي أن تغضبني؟

– وهل أجرؤ على ذلك؟ لكنك من يغضب لوحده.

– المهم، ستنام إذن عند كميل، ألم تقل أنه قريب منَّا؟

– أجل، ولكن هل بعد كل هذا التعب ستقذفين بي إلى كميل؟!

– أظن أنك مشتاق له.

– ومن هو لأشتاق له؟ لا أشتاق سوى لكِ أنتِ

– فستنام عنده ليزداد شوقك.

– حسنًا، كما تشائين، على أي حال سنتزوج في اليوم التالي، وراح يضحك.

– ستفوتنا الطائرة وأنت تضحك، هيا بنا

ختمنا جوازات السفر، واتَّجهنا نحو الطائرة، قد اختار لنا هادي مقعدين بالقرب من النافذة في مقدمة الطائرة، اقترب موعد الإقلاع لكن هاتفي يرن.

قال هادي:

– لا تجيبي ، لن نعود يارا، هل فهمتِ؟

– أنه جهاد

– أيًا كان لن تجيبي قبل أن نصل ونتزوج بعدها بإمكانك أن تتصلي بمن تشائين.

– لكن جهاد، لن يتصل إلا للضرورة.

– كما تشائين ، لن أتدخل.

بالطبع أجبت، ليس لدي خيار آخر، أخاف أن اقضي طيلة عمري نادمة ان لم أجب على هذا الهاتف، أعلم أنه سيقول إن أبي في المشفى وسيطلب مني العودة، ولكن هل سأعود؟

- جهاد، ماذا جرى؟

- لم يجري شيء.

- متأكد؟

- أجل، لم يعلم أحد بعد، فلا تزال الساعة الثالثة وكأنك في العمل.

- لماذا تتصل إذن؟

- ما بكِ؟

- أنت تعلم ان أعصابي تحترق.

- لا تقلقي، أردت الاطمئنان عليكما فهاتف هادي مغلق وقد أقلقني خوفكِ صباحًا.

- الحمد لله، كل شيء على ما يرام، وها نحن في الطائرة.

- جيد جدا، أبلغي هادي أن النقود حولت إلى حساب كميل رافقتكما السلامة سأشتاق لكما.

- ونحن أيضًا كثيرا يا جهاد، لا تنسى أن تخبرني.

- حسنًا.

وأقلعت الطائرة أخيرًا.

***

في اليوم التالي من وصولنا استيقظت على صوت هادي وكميل يقرعان الجرس، وهادي يقول:

- افتحي يارا لم أكن أعرف أن نومك ثقيل لهذه الدرجة.

قال كميل:

- أنصحك بأن تعيد التفكير بالموضوع.

خرجت لهما و قد لففت اللحاف على جسدي، وقلت: لم أكن أعلم إن هذه البلاد باردة لهذه الدرجة؟ من سيعيد التفكير بي؟

قال هادي ضاحكًا:

-في كل مرة ألقاكِ فيها أشعر وكأنها الأولى، تفاجئيني دومًا بتصرفاتك، ما هذا؟

- هل تريد ان أعود لوطني؟

- وطننا، ثم أنا وطنكِ من الآن فصاعدًا، فكيف ستعودين إليها مني؟

قال كميل:

- هل أنتما مجنونان..

- اقترب هادي مني، واحتضن اللحاف وقال:

-مجنون الحاف

ضحكنا جميعًا، ثم قال كميل:

-استعدي يا عروس، اليوم يومكِ، ستذهبين بعد قليل لتجهيز نفسك.

نظرت نحو هادي وقلت بفرح كطفلة متفاجئة:

-سنتزوج!

قال:

-أجل، اليوم اليوم سنتزوج، وعاد يضمني

قال كميل:

-هيا يا يارا، هل قال أحدُ لكِ من قبل ان اسمك صعب في النداء؟

نظرت نحو هادي وقلنا معًا:

-لا، أبدًا وضحكنا من جديد.

قال كميل:

- أقسم أنكما جعلتماني أعيد التفكير في موضوع الزواج، أريد أن أتزوج.

ضحك هادي وقال:

-سنبحث لك اليوم عن عروس.

قلت له:

-و هل ستترك عروسك لتبحث لصديقك عن عروس؟

قال هادي:

- إنه الوفاء.

تجهزت وارتديت ثوب الزفاف وتجهز هادي، وأخذنا كميل في سيارة فارهة إلى الكنيسة، حينما وقفنا أمام الكنيسة!

قلت:

-لماذا إلى الكنيسة؟

قال كميل:

-أليس هادي من اتباع الكنيسة؟

قلت:

-بلى، إذن؟

قال:

-سيتزوج في الكنيسة.

نظرت نحو هادي وقلت والذهول يعلو وجهي:

- في الكنيسة يا هادي؟

قال:

- لا أراها فكرة سيئة

قلت:

- حقًا؟

قال:

- ألم يحاول والداكِ فعلها بي؟

قلت:

- لكني منعتهم.

قال:

- تقصدين والدتي من منعتهم.

- والدتك؟

- أجل، دعي والدتكِ تأتي لتنقذك؟

- تنقذني؟ منك؟

- أجل مني يا يارا، هل تعتقدين أني سأتزوج دون مباركة الكنيسة

- مباركة الكنيسة؟

قال ضاحكًا:

-ما بكِ يا مجنونة؟ هل خفتِ؟ أن اليوم الأحد، ومن الجيد أن نتزوج في يومٍ كهذا، سأنزل لثوان ليباركني الخوري وأعود.

نزلا وقد تنفست الصعداء، كاد قلبي أن يقف من الخوف، لكن ماذا لو فعلها حقًا؟ ماذا كنت لأفعل؟ هل كنت سأقبل؟ بعد كل هذا القتال لحفاظه على دينه؟ هل كان حقًا سيسلبني ديني؟

بعدما عادا، سألت كميل:

- ألا يوجد مسلمين في تورنتو؟

- بالتأكيد يوجد، ولدي أصدقاء كثر منهم.

- إذن يوجد بها مسجد؟

- يوجد ولكن بعيد قليلًا، لماذا؟

- هل تأخذني إليه؟

- بالطبع.

قال هادي:

-لماذا؟

-لكي تُسلم، فلن أتزوج بك وأنت على دينك هذا.

- حقا؟

- أجل، فلتحضر امك ان استطعت، لتمنع ذلك

- لستِ ممن يفعلون هذا، أنا أعرفك

- أنت لا تعرف شيئا

قال كميل: لماذا نحن هنا؟

قلت: إن اليوم الجمعة، وهو يوم جيد أن نتزوج فيه، أريد للشيخ أن يقرأ لي

هل أنتما أحمقان: أحدكم يقول الجمعة والأخر الأحد، انه يوم السبت!

وانفجرنا ضاحكين، وآخذاني للمسجد كما طلبت، كنت بحاجة ماسة لهذه الدقائق، عندما عدت للسيارة، قلت لهادي:

- الآن فهمت لماذا ذهبت للكنيسة، لقد كنت على حق نحن بحاجة لأن نثبت أنفسنا قبل هذه الخطوة.

فقال هادي لكميل:

- أرأيت لماذا أحبها؟ أن لها عقل يكفي عشر نساء، ثم أمسك يدي وقبلها، وكميل ينظر إلينا من مرآة السيارة.

قال كميل:

-ألا تصبر يا حبيبي؟

قال هادي:

- هل سنتأخر كثيرًا في هذا الحفل؟

- سنسهر حتى الصباح، هل هذا يناسبك؟ حفلة ضخمة

- في الواقع لا يناسبني أبدًا، ألا نستطيع اختصار الحفل على المراسم فقط؟

- ولماذا دعوت كل هؤلاء الناس إذن؟

- لا أدري، قال وهو ينظر في عيوني: هل تريدين حفلًا ساهرًا حتى الصباح، أم نسهر وحدنا يا حبيبتي؟

قلت: هل تذكر أول مرة التقينا بها؟

- أجل في حفل رأس السنة، حينها قد آلمكِ رأسكِ من الضجيج، وأردتِ الخروج.

- أجل، وأنت قلت بأنك لا تحب الحفلات كثيرًا.

- حتى في حفلة ميلادي الكبيرة التي أعددتها لي، تركنا الناس وخرجنا.

- وفي حفلة ميلادي كذلك.

- أصبحنا بعدها نحتفل وحدنا، أتذكرين؟

قال كميل:

-ما كل هذا التاريخ؟ قولا إنكما ستهربان بعد المراسم ببساطة.

قال هادي: إنك عديم الإحساس.

***

وصلنا لمكان الحفل، قاعة كبيرة، فيها ما يقارب المئة من النساء والرجال، دخلت أنا في البداية في زفة عربية، وجلست أنتظر العروس، دخلت يارا وهي ترتدي فستانًا أبيضًا ناعمًا ضيقا، في وسطه القليل من حبات اللؤلؤ، له ذيل طويل وطرحة طويلة تسير فيتبعانها بإخلاص وهدوء.

لم أرها في عمري بهذا الوقار، كانت تسير بسكينة واضحة عليها، لا تحاول النظر إلى أي أحد، فهي حتمًا لن تجد من تعرفه هنا سواي، لم أشأ أن أتركها تسير كل هذه المسافة وحدها، فاقتربت إلى نصف الطريق أو أكثر، وانتظرت وصولها، ثم ألبستها محبسًا ذهبيًا جميلًا، وأعطيتها محبسًا فضيا لتلبسني إياه،

نظرت إلي بحيرة وعيونها دامعة، فاقتربت منها وقبلت جبينها، وقلت: لن يضرني ان كان المحبس فضيًا، ولن ينفعني إن كان ذهبيًا، ابتسمت وقالت: أحبك.

سرنا معًا نحو القاضي، وسألنا إن كان لنا شروط إضافية على العقد، وإن كنا نقبل بهذا الزواج، فأجبنا بصوت واحد: نعم.

***

استمر الحفل لوقت متأخرٍ جدًا، لكني وهادي انسحبنا بعد نهاية المراسم بساعة، احتفلنا قليلًا وشاركنا بالرقص، ثم أعادنا كميل إلى منزلنا الجديد، وعاد لضيوفه، فعلى كل حال نحن لا نعرفهم، وقد حضروا لأجله.

بمجرد دخولنا المنزل كانت الشموع تضيئه كاملًا وكانت الأزهار البيضاء التي أحبها منتشرة في كل أرجاء المنزل، سرنا حتى وصلنا منتصف البيت الصغير وقفنا هناك وضع هادي يده فوق قلبه وقال لي:

لا أصدق أننا استطعنا أخيرًا أن نجتمع في بيتٍ واحد كزوج وزوجة، مكانك هنا في هذا القلب وهذا البيت، أعدك أن تكون حياتنا بيضاء كفستانك الجميل هذا، ثقي بي.

وضعت يدي فوق يده وهي على صدره، وقلت له: أنا أثق بك حبيبي وأعلم إن هذا القلب لن يخذلني أبدًا وسيبقى كما كان منذ سنين.

رفع يدي وانحنى برأسه قليلًا وطبع قبلة طويلة على يدي، كان كمن يتنفسها لا كمن يقبلها، ثم جذبني إليه بسرعة كبيرة واحتضنني بقوة وقال: أخيرًا يا حبيبتي، وضعت يدي خلف ظهره وشددته نحوي أكثر، بتنا متلاصقين كجسد واحد ورحنا نرقص طويلًا جدا.

أكملنا الحفل في بيتنا، رقصنا وغنينا واحتفلنا حتى ساعة متأخرة جدًا من الليل، إنها أول مرة أنام فيها بين أحضانه، لم أكن أصدق أن بإمكاني ترك الدنيا لأجله، وأقولها بصدق إن الأمر يستحق كل هذه التضحيات.

إن شخص حنون ومحب كهادي لن تكون الحياة معه سوى حياة مليئة بالسعادة والعواطف الصادقة، إن هذا يبدو من تصرفاته معي ومن همساته التي رافقتني طيلة ليلتنا الأولى معًا، هو حقا من تتمنَّاه كل فتاة على وجه الأرض، على الأقل من وجهة نظري أنا.

أخيرًا اجتمعنا معًا في منزل واحد كزوج وزوجة، كل ما تعرضنا له خلال السنتين الماضيتين قد مُحي في دقائق، اقترب إليّ هادي، وقال لي، والفرح يعلو صوته:.

- ها قد تزوجتكِ أخيرًا، ألا يستحق هذا كل التعب الذي رأيناه؟

- بلى، لكن فرحتي كانت ستكتمل بوجود والداي ومشاركتهم لي.

- لا تقلقي، في الغد سنفتح هواتفنا ونتصل بعائلاتنا ونطمئنهم.

- أتمنى أن يكونوا بخير، فأنا لم أعد احتمل المزيد من التضحيات.

. - و أنا أتمنى ذلك، فإن ما يسعدكِ يسعدني يا حبيبتي

في ظهر اليوم التالي، استيقظت من النوم على رائحة طعام تملأ البيت، سرت نحو المطبخ بحذر، فالبيت صغير جدا، يتكون من غرفة نوم وحمام ومطبخ صغير مفتوح على غرفة المعيشة، عند وصولي خلفه شعر بوجودي، فأمسك بيدي دون أن يلتفت إلي وأجلسني على الكرسي المجاور له وقال:

- تفضلي الإفطار يا ملكتي.

- لم أكن أعرف أنك ماهر في تحضير الطعام.

- لقد تعلمت ذلك من أبي.

- وهل المذاق ذاته؟

- ماذا تقصدين؟ بالطبع لا.

- سأحكم بنفسي.

وتناولت قطعة من البيض المسلوق، وقلت له:

- لا بأس بك، ستتولى مهمة تحضير الإفطار كل يوم.

- كل يوم؟ أنا؟

- بالطبع، فنحن سنتقاسم كل شيء.

- حسنًا.

بعد الفطار قرر هادي أخيرًا، أن يفتح هاتفه المغلق منذ يومان، وما أن فُتح الهاتف حتى توالت الرسائل عليه، كلها رسائل إلكترونية، فنحن لم نشترِ أرقامًا جديدة بعد، قلت بخوف:

- ما الأمر؟ ممن كل هذه الرسائل؟

قال والشحوب باد عليه:

-جهاد ووالدي، و إبراهيم ونور وسعيد

- ماذا؟ إبراهيم ونور وسعيد؟

- أجل.

- اقرأ لي إذن.

- جهاد أرسل يسأل عن أحوالنا ويطمئننا أن كل شيء جيد

- كل شيء جيد؟

- أجل.

- وإبراهيم و نور؟

- إن نور تلومكِ كثيرًا وتطلب منكِ العودة، فقد تعب والدكِ جدًا

- أبي متعب؟ لقد قالها لي كثيرًا، ستكون نهايتي على يدكِ

- أي نهاية؟ هو متعب فحسب

- وإبراهيم وسعيد؟

- أنهما يهددان و يتوعدان، لكن هذا كله لا يهم، هو مجرد كلام.

- لا يهم؟

- أجل، سينسى سعيد ويتزوج غيرك.

- وهل سينسى إبراهيم؟

- ان الزمن كفيل بتبريد أكبر القصص.

- وإن لم تبرد؟

- لن يستطيعا الوصول إلينا، سنرفق أسمائهم في السفارة مع طلب الهجرة، ونوضح أنهم ممن يسببون لنا الخطر.

- أرأيت؟ أصبحت عائلتي خطر

- لا يهم، دعينا نتصل بجهاد ونعرف أخبار والدكِ، فهذه الرسائل أرسلت من يومين

- أجل، هيا.

و اتصل هادي بجهاد، الذي طمأنه عن والديه أولًا، فقد ذهب سعيد وإبراهيم إلى منزلهم بحثًا عني؟

ثم سأل عن أحوالنا وإن كنا سعيدين في المنفى كما وصفه، أخذت الهاتف منه وقلبي يحترق وأنا أنتظر جملةً عن عائلتي، وقلت:

- جهاد، ماذا حدث لوالدي؟

- يقولون إنها جلطة قوية، عندما لاحظ الجميع تأخركِ بدأوا بسؤال من يعرفون من زملائك في العمل، وبالطبع سألتني دنيا، وأخبرتها بما حدث وطلبت منها أن لا تخبر أحدا، لكنها لم تستطع، وحينما سمع والدكِ الخبر قال وهو يضع يده على قلبه ويسقط رويدًا رويدًا: دعوها فلتذهب بلا عودة.

- رباااااه، وماذا بعد ذلك؟

- إن أمكِ أقوى منه، تحاول تخفيف الألم عنه، وهي تقول: في النهاية هذا زواج قانوني، لكنها بالطبع لا تقصد ذلك، فالألم يعتصرها في كل لحظة..

- أنا الآن في المشفى مع عائلتك، أحضرني سعيد مرغمًا ليستمع للقصة أمامهم

- هل يحدثني أحدهم؟

- لا، لا تفكري بهذا الأمر الآن أبدًا، دعيهم لفترة وسأحاول لكِ معهم.

- أعطني دنيا إذن.

- دنيا؟ متأكدة؟

- أرجوك.

- ذهب جهاد ونادى دنيا صديقتي وجارتي، أخذت الهاتف منه وهي تقف بجانب سعيد وإبراهيم وتفتح السماعة الخارجية، ثم قالت:

– ما الذي فعلته يارا؟ إن والدكِ قد يفارق الحياة في أي لحظة وسيبقى ذنبه معلقًا في عنقكِ حتى آخر يوم في حياتك.

– دنيا، اسمعيني أنا فقط.

– اسمعي أنتِ، أن الجميع هنا يتمنى موتكِ قبل أن تتزوجي ذلك الوغد أخذ منها إبراهيم الهاتف، وقال لي:

– أقسم بأني لن أدعكِ تهنئين في هذا الزواج، سأصل اليك وسترين.

– إبراهيم يا حبيبي، فكروا بي أرجوكم.

– لا حبيب لكِ سوى ذلك الوغد الذي سأقتله، لم تفكري فينا ولا في أبينا الذي يصارع الموت الآن بسببك..

– بسببي؟

– بالطبع بسببك، قولي لي ماذا سنقول للناس الآن؟ زفافك بعد أسبوع، ماذا سنقول لهم؟ هربت مع عشيقها؟

– ليس عشيقي، هو الآن زوجي.

– لا أحد يعترف بهذا الزواج، سنرى إلى من ستلجئين حين يخذلك هذا الأبله.

– ليس أبلهًا، ولن يخذلني، يكفي أنه احتمل إهاناتكم و بقي مُصِرًا على الزواج بي، أتفهم هذا؟ أين أمي؟ أريد أمي

وبدأت أصرخ وأنا ممسكة بالهاتف كالمجنونة، أمسك بي هادي وألقى الهاتف على الأرض، وضمني أليه بقوة وهو يقول:

– اهدأي حبيبتي، لا حاجة لنا بأحد، أعدكِ أن أعوضكِ عن كل هذا، سأكون والديكِ وأخاكِ وأختكِ.

.

أجلسني على الكرسي، وراح يمسح الدموع التي تسللت مني وأنا أبكي، وهو يقول بنبرة حنونة، كما لو كان يحادث طفلة:

– سيكون لنا حياة كبيرة هنا، وستتعرفين إلى أصدقاء كُثر، وسنكون أسرة جميلة تعوضنا عن كل شيء.

– هادي

– يا عيون هادي، ماذا تريدين؟

– هل ستخذلني حقًا كما قال إبراهيم؟

– وهل سبق أن قال إبراهيم شيئا صحيحًا عني؟ سأقتل نفسي قبل أن أفكر في ذلك، أنتِ ابنتي الوحيدة.

– نظرت إليه و الابتسامة تغزو الدموع في وجهي، وضممته دون أن أقول أي شيء.

***

لن أخبرها بما يحدث مع عائلتها، وسأوصي جهاد بذلك، هي الآن بحاجة لأن تفرح فقط، قد مر على زواجنا أسبوع ولا زالت حبيسة الغرفة لا تخرج منها أبدًا، وجهها أصبح نحيلًا و تحت عينيها من السواد ما يكفي ليكحل مائة امرأة.

هل جئنا لهذه البلاد لنتعذب؟ هل تزوجنا لأدعها تموت ببطيء بين يدي؟ أن علمت أن والدها فقد القدرة على النطق فستجن بالتأكيد. ماذا لو علمت أن ماري زارت والدها بالمشفى، وأخبرته كيف كانت تحاول إبعادها عني،

وإنها السبب في زواجها من ابن خالها، لماذا فعلت هذا ماري؟ ألا يكفينا ما نحن فيه؟

إن جهاد يتصل بي، كنت على وشك الاتصال به، أتمنى أن تكون أخباره سارة هذه المرة.

- أهلا جهاد، كيف حالك؟

- بخير، وأنتما؟

- جيد، لكن يارا ليست على ما يرام أنها متعبة، إن كان لديك أخبار سيئة فأرجوك لا تقلها

- على العكس، أخباري اليوم جيدة، أعطني يارا إن سمحت

قلت بصوت عالٍ وأنا متجه إلى غرفة النوم، حيث تجلس يارا:

- هل تقول أن لديك أخبارًا جيدة، هذه يارا خذها واخبرها:

- ألو يارا

- ما الأخبار يا جهاد؟

- لن أقول قبل أن تطمئنيني عن صحتكِ.

- أنا بخير، أخبرني أرجوك.

- لقد خرج والدكِ من المشفى اليوم، لا يزال يخطو خطوات بطيئة، لكن وضعه تحسن كثيرًا، والأطباء يقولون انه سيتعافى خلال شهر.

- حقا؟ أصبح أبي بخير، حمدا لله حمدا لله

- ليس هذا وحسب

- ماذا أيضًا؟ هيا قل

- لقد خطب سعيد وسيتزوج بعد أسبوع

- هل سعيد خطب؟ وزفافه بعد أسبوع؟ بهذه السرعة؟

- أجل، لقد أخبر الجميع أن والد العروس تعرض لأزمة لهذا أجل الزفاف، وخطب فتاة يعرفها ليحافظ على ماء وجهه أمام الجميع، وليأخذها معه للإمارات.

- إن هذا جيد، لن نحمل هم سعيد بعد الآن إذن.

- أجل يا عزيزتي، إن الأمور تتحسن بسرعة كبيرة، لذا لا تفكري بنا أبدًا، جميعنا بخير

- جميعكم، وأمي؟

- قلت لكِ إنها أقوى الجميع، أنها بأفضل حال.

- جيد، شكرا لك يا جهاد، لقد اتعبناك معنا.

بعد أن أنهت مكالمتها، وضعت الهاتف جانبًا واقتربت مني وهي تضحك، وقالت

- إن صحة أبي على ما يرام، لقد تحسن وسيخرج اليوم من المشفى، وأنا أيضًا؟

- أنت ماذا؟

- أريد أن أخرج، لقد اختنقت في هذا البيت، أريد أن نقذف الماضي خلفنا من هذه اللحظة، ونعيش حياتنا كما نحب.

- إن هذا ما أنتظره منكِ منذ أسبوع، هيا لنحتفل ونخرج معًا.

***

مر على زواجنا ستة أشهر، وها أنا الآن في شهري الثالث من الحمل، يقولون الأطباء بأنها قد تكون بنتًا في أغلب الظن، لكن هذا الأمر لا يقلقني كثيرًا، حتى أن هادي بدء من الآن بتسميتها، لم يشأ أن يبحث لها عن اسم فقرر أن يسميها يارا، لكن أنا لا أريد ذلك، أريد ان أسميها على اسمكِ يا أمي "أمل"..

لقد تعلمت منكِ الصبر الطويل والإصرار على الحياة ومحاربتها حتى نحصل على ما نريد، أعلم أنكِ منزعجة مني، لكنني أدرك تمامًا كم أنكِ فرحة من أعماقكِ لراحتي وسعادتي، فأنت بالرغم من كل هذا الحزن لن تتمني لي يومًا سوى السعادة.

لقد علمتني الأمل، كنتِ تقولين لي دومًا "أن الأمل مفتاح الفرج لا الصبر"، و دومًا تذكريني بجملة سعد الله ونوس التي تحبينها" نحن محكمون بالأمل"، لكنك يا أمي لم تسمعي ماذا قال مريد البرغوثي عن الأمل، قال:

"الأمل، ذروة اليأس يا صاحبي الأمل

توجع قليلًا توجع كثيرًا

توجع فإن الأمل ذاته موجعٌ حين لا يتبقى سواه"

ارأيتِ يا أمي، أن الأمل ذاته موجع حين لا يتبقى سواه، لكنني ورغم هذا تشبثت بالأمل حتى حصلت على ما أريد، أنتِ من علمتني هذا، أظن إن هذا الأمر في جيناتنا نحن نساء هذه العائلة، هل تذكرين حين أخبرتني عن إصرار جدتي على شراء المنزل الذي عاشت به حتى نهاية عمرها، قلتِ إنها

وبعدما نزحت مع جدي إلى الأردن وعمل في الجيش، لم تكونوا تملكون أي بيت هناك، سوى غرفة ومطبخ وحمام مشترك مع جيران، وبقيتم على هذه الحال حتى صدر مرسوم ملكي لموظفي الجيش، يعطيهم بيوتًا بالتقسيط.

قلتِ إن جيرانها رفضوا أن يدفعوا لقاء الحصول على بيت بعيد المدى، وكان جدي يفكر بالطريقة ذاتها، خاصة أنه لا يملك من النقود ما يكفي وإن كان الثمن قليل وبالأقساط، لكن جدتي أبت وظلت مُصِرة على امتلاك بيت ولو بعد حين، فقالت: " حتى لو اضطررنا للعيش على الخبز اليابس فسنكمل أقساط البيت"

وهذا ما حدث فعلًا، بعد خمس سنوات تسلمتم بيتًا جديدًا، وبدأوا بكسائه وتجهيزه، ولم ينسى جداي أن ينقلا معهما فلسطين إلى حديقة بيتهما.

إنها عائلة رائعة، تُسعدني قوة النساء فيها، إن فيها من حكاياتهن الكثير، لكنكِ تعرفينها أنتِ من قصصها علي، أنا سعيدة أني ابنتكِ وابنة هذه العائلة الرائعة..

أحبكِ

ملاحظة: لقد حصلنا أنا وهادي على عملٍ جيد وتم منحنا الإقامة الدائمة، لكننا سنفعل مثل جداي ونحضر فلسطين إلى حديقتنا.

ملاحظة ثانية: أنا أكتب لكِ وأنا أعلم أن هذه الرسالة لن تصلكِ لأني لن أملك من الشجاعة ما يكفي لإرسالها لكِ، وقد أفعل، لكن تذكري على كل حال أنكِ أملي الوحيد.